سلسلة الأخلاق والعرفان

6





التجلّي

في كشف الأنوار الإلهيّة والمعارف التوحيدية

الجزء الثالث

كريم محمود حقيقي





مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

التجلي

في كشف الأنوار الإلهية

و المعارف التوحيدية


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الأخلاق والعرفان
(٦)

التجلي

الطريق إلى كشف الأنوار الإلهية و السير في آفاق معرفة الله

(الجزء الثالث)

تأليف:

كريم محمود حقيقي

ترجمة:

زهراء يگانه



ابداع للنشر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ - ص.ب: ٢٥/٣٥٥ - غبيري - بيروت

Daralkatebalarabi@hotmail.com

الخطوة الثالثة

(على طريق تجلي الانوار الالهية)

برهان الصديقين

(الشهود والفناء في الله)

المصباح الدليل

رزقتَ عقلاً سليماً فلا تعزف عن التفكير، لتكن جديراً بالانتساب إلى أولي الألباب. لا تسترضين لتفكيرك من حاصل إلّا المعرفة والعرفان لتلتحق بالوالهين متى ما أصبت مرتبة معرفته.. فثمرة الوله، الخشوع والعبودية والذكر المتواصل. وفي ظل العبودية يتحقق لك ذاك القرب، لأن:

«العبودية جوهرة كنهها الربوبية»[1]؟

---

١ ـ عن الإمام جعفر الصادق (ع). انظر «مصباح الشريعة».

المقدمة:

«رحلة على وشك الانتهاء»

خلال انشغالي بالتدريس في الجامعات ودور اعداد المعلمين كنت على اتصال دائم مع أعزتي الشباب. لاحظت ولع نفوسهم وتعطشها لشراب المعرفة. ولكن أكثريتهم كانوا يشكون من أن أغلب الكتب العرفانية على درجة من الصعوبة والتعقيد تحرمهم من استيعاب مضامينها. فكّرت أنه ليس من الحكمة أن أبقي على ظمأ هؤلاء العطاشى فلا أسقيهم من مستخلص ثمار العرفان. من هنا ارتأيت أن أقدم لهم هذه السلسلة ـ بما فيها من كلام الحبيب وأحاديث رسوله الكريم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ورشحات من ايماءات العرفاء ـ في ستة أجزاء هي:

ـ الجزء الأول: (التخلي والتزكي) «في تعرُّف السالك على التلوثات النفسية وتطهُّره من التدنسات الخلقية (خلال الخطوة الأولى) ومن ثم حرصه ـ في خطوته الثانية ـ على تفادي التلوث من جديد في مسيرة

الحياة.

تعلم السالك، بعد إلمامه بهذا المبحث، كيف يزيح الصخور عن دربه وكيف يمكنه عبور الطرق الوعرة في مسيره.

ـ الجزء الثاني والثالث: (التحلي) «في تزيُّن السالك بما يليق بلقاء الحبيب بعد تطهره من كل دنس كبير وصغير».

عرض عليكم هذان الجزءان في سوقهما أدوات زينة النفوس، على قدر المستطاع ليكتسي السالك حلة مناسبة تليق بعظمة اللقاء.

ـ الأجزاء (٤ ـ ٦): (التجلي). يطّلع القارىء، بما في هذه الأجزاء الثلاثة، على معارف وإشراقات الهية ومظاهر تجل توحيدية تعرّفه على نفسه، وبنفسه على ربه حتى يظفر بلقائه. فاما الجزء الرابع (التجلي ١) فانه يدور حول السير في الآفاق أي التأمل في آيات الحق تعالى وتجلياته في عالم الطبيعة.

والجزء الخامس (التجلي ٢) فإنه يدلك على طريقك ضمن رحلتك في آفاق نفسك وارتباط النفس الإنسانية بربها.

وأنا أقف على أعتاب تأليف الجزء الأخير وإنهاء رحلة السير نحو الله، كأن أناملي كانت ترتعد، فكلما يزداد الإنسان قرباً من الله يزداد طريقه نحوه وعورة ولكل سالك من خطورة التعثر والتهاوي خوف ورعب. ولكن الأصدقاء ألحوا عليّ لاتمام هذا الكلام حتى ناجيت ربي خالق الكون والكائنات ليلة أمس أن: رباه! أنت مُطلِق الهمم ودليل الانام إلى أعالي القمم.. لو كنت تأذن لي لأمسك القلم وأقدم به باقة من زهور كتابك الفواحة وإكليلاً من أحاديث المعصومين عليهم السلام

وكلام أصحاب العرفان والمقامات الحميدة إلى الأصحاب والأعزة من طلاب معرفتك والفناء فيك. ولما استرشدته بالقرآن، جاءني ردُّه في الآية:

﴿ثم كُلي من كل الثمرات، فاسلكي سبل ربك ذُللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[1].

بتلقي أمر الحبيب في هذه الآية لم استسغ التأجيل، وعلى أمل نيل التوفيق منه أقدِّم لك هذا الشراب النقي من مستخلص أزهار المعرفة مع نكهة من كلام الله المجيد والأحاديث المروية عن نبينا الكريم ﷺ وآله المطهرين عليهم السلام، لعلك تروي ظمأ نفسك به، وينالني منك دعاء الخير. إن شاء الله.

---

١ ـ سورة النحل، الآية ٦٩.

«الطريق إلى مقام الشهود»

طال أمد سكنى الإنسان في أرض ربه دون أن يكون على أدنى اطلاع حول ناره.. ربما برقٌ من السماء أوقد ناراً أو تولدت أمامه جراء احتكاك صخرتين، فشاهدها أحدهم ووصف ما رآه للآخرين فلم يصدقه أغلبيتهم. ومن صدقه راح، فيما بعد، يذكر مواصفاتها كحكاية تروى أو تصور يعتلج الذهن. أما المشاهد بأم عينيه فلا يتنكر للحدث أبداً، فكيف بمن ألهبته النيران وأحرقته وعانى من آلام اصطلائه بها الأيام تلو الأيام.

والطريق من الجحود وحتى مثل هذا المقام والمرتبة تتخلله منازل ومحطات. وعلى هذا، لابد من عبور قنوات الحدس والظن والشك ومن ثم اجتياز منزل (علم اليقين). بالاستناد إلى المنطق والبرهان وصولاً إلى مدينة (عين اليقين).. فبعد مضيك منها، حط رحالك.. إنك أمام مشهد (حق اليقين). وليس حظك منه الرؤية فقط بل اللذة والتذوق كذلك.

ولما تطرب نفسك بلذة الذوق، لا يسعنك ـبعدهاـ الاكتفاء وغض النظر عنه حتى للحظة واحدة.. ولكن لا تنس.. بنا ألف حاجة حـتى النوال. والدرب إليه وعر والكلام مستطال. فلو كنت راغباً في الثمالة، انهض واشدد رحالك. فعلى الله توكلنا جميعاً.

«إشارات في معرفته»

كان فيما كان في قديم الزمان، لم يكن هنالك لا في الأزل ولا في الأبد غير ربنا الرحمن، والآن.. ليس سوى النظر في تجلياته من سبيل أمام أصحاب العرفان.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«كان ولم يكن معه شيء والآن كما كان»[1].

كان هو في الشرق وكان هو في الغرب، هو هو في الشمال وكذلك هو في الجنوب. خاطبته: أين أنت؟ قال: المكان كله لي وأنا معك في كل مكان.

كان فرداً ولكن لم يكن منفرداً، فأياً اخترت لأبوح له بأسراري كان هو ثالثنا. لم ينعقد مجلس دونه، قط. وفي عين وحدانيته هو المطّلع في كل لحظة على سر كل صاحب سر، يسمع همسات من يناجي. كان هو صاحب كل مائدة جلستُ إليها والمنعم بكل نعمة أصبتها. متى ما

---

١ ـ ميزان الحكمة، المجلد ٦.

أغاثتني يد وجدتها تخرج من أكمامه وكأن أكمامه تحوي مئات آلاف الأيدي. ومع كل هذه الوحدانية لايعد محبّوه ولا يحصون.

ما رأيت والهاً إلّا وقد تيمه نور جماله ولم أنصت لحامد إلّا وهو يحمد حسنه، هو واحد ولكنه نصير كل بائس مسكين علّق عليه معوله.

نظرت إلى عظمة السماء فوجدتها تفقد عظمتها إزاء جلاله. صباحاً كشفت الشمس النقاب عن وجودها. فقلت: لا طاقة للعين على النظر فيك. فأجابتني ضاحكة: ما ترىٰ إلّا قبساً من النور الذي تتقصاه. فكيف لك بتحمله؟

قلت: فلقاؤه؟!

قالت: عظيم منال.

قلت: وكلامه؟!

قالت: هو ما تجده في منزلك.

قلت: وأسراره؟!

قالت: في ثنايا كلامه.

قلت: وفعله؟!

قالت: عالم الوجود فعله.

هو واحد ولكن ما في يديّ من قوة وفي عيني من بصر وفي أذنيّ من سمع، وفي لساني من نطق، وفي أفكاري من معرفة، كلها هو دون سواه.

يدهشني الأمر. فمع كل هذا القرب لماذا أنا بعيد عنه. هجرانه أسال

دمعي، فسمعت نداءه من أعماقي، يقول لي: «لا تخف ولا تحزن».

قلت مندهشاً: وجدتك في العالم الخارجي ولم أكن أعرف أنك في باطني أيضاً.

قال: أزح رداءك عن صدرك و ضع يدك عليه حتى تشعر بضربات قلبك. ثبتها هناك. إنه صدى أقدامي. فأنا معك متى ما كان هذا الصوت يتردد في صدرك.

قلت: سبحان الله أنت في الخارج وأنت في الباطن؟ فكيف عجزت عن لقياك إلى الآن؟

قال: لن تراني ما دمت تحسب حساب نفسك. سوف ترى ربك متى ما تخليت عن نفسك.. هكذا نسيت نفسي خلال لحظة واحدة بأمره.

عرفت سر وحدانيته. ولما انكشفت الحجب، نزلت أمطار رحمته تتغنى بأنشودة: أنا رحمته. قال البرق ضاحكاً: وأنا طلعته. هدر الرعد ينادي: وأنا تسبيحه. هب نسيم وديع فهمس: وأنا حامل رسالته. أشرقت الشمس تقول: وأنا نوره. تجلت السماء توحي: أنا عظمته. وتفتحت الأزهار تنبىء: نحن مرسمه. فتح الطاووس جناحيه فأرانا قبساً من جماله. المزارع اليانعة اثمرت حبوباً تقول: هذا رزقه. وتغنى العندليب يقول: وهذا حمده. وجدتني مغبوناً جداً إن التزمت الصمت في خضم هذه الهمهمة العارمة. أمسكت قلمي لأكتب عن كل ما شاهدته فحدثني:

أنت عزمت على الكتابة، فأكتب. ولكن اعلم أنني أسمى من أن تقدر على وصفي.

«السعادة الحقيقية»

الإنسان ومنذ أوان بلوغه يتقصى درب الحياة بـعقله وتـفكيره. لا يكل من بحثه الدؤوب والمتواصل عن السعادة. فإن قصرت مـرامـي تفكيره في بحثه يحدد السعادة بأنها التمتع بلذة الحواس، فـإن جـاع تناول ألذ الأطعمة وإن عطش اسكن ظمأه بشراب منعش. يريد لعينيه أن تريا المحاسن فقط، ولأذنيه أن تسمعا الألحان العذبة، ولحضنه أن لا يلمس إلّا الفاتن الجميل. إنه لا يعرف للسعادة معنى غير هذه الأمور بل حتى لم يفكر بسواها قط.

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[1].

إنهم يرون السعادة فيما هو مطلوب الحواس، والشقاوة فيما تتنكر له. والسعادة بمثل هذا المفهوم هي عينها غاية الحيوانات، وهي ما يرنو إليه الجانب الجسماني من وجود الانسان، وهذا أمر مستهجن. ربـما يغرق الانسان بانقياده له في غفلة تامة تصده عن إدراك عظمة نفسه.

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٧.

وهذه الحواس نفسها، لذائذها محدودة وقليلة. فإن تـجاوزت لذتـها قدرها المحدود تحولت إلى آلام ومعاناة. فلا يستسيغ الجائع أكثر من استيعابه من الغذاء والظمآن يطفيء ظمأه بكأس من ماء، فإن تمادى لا تُسلَب منه لذته فحسب بل تتحول إلى نفور أيضاً.

العين لا ترىٰ إلّا بالضوء، فإن خـفت احـتجبت عـن الرؤيـة. وإن تعرضت لضوء باهر تختل رؤيتها، كما يحدث عند النظر إلى الشمس مباشرة.

الأذن لا تسمع الأمواج الصوتية الضعيفة كما تتعرض طبلتها للأذى بتأثير الأمواج القوية جداً.

من جهة أخرىٰ تأخذ قوة الحواس بالانحسار مع حـلول مـوعد الكهولة والشيخوخة وربما أفلت تماماً في بعض الحالات:

﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق افلا يعقلون﴾[1].

فكيف يمكننا أن نحسب التمتع بملذات هذه اللحظات المـحدودة الفانية سعادة. ولا يكون هذا التصور إلّا في ظـل الانـقياد للـتعلقات الجسمية، بينما إن التفت الإنسان إلى نفسه واستوعب ذاته واكتسح في نظراته الجانب الجسماني من وجوده فاهتدى إلى معرفة نفسه وذاته، وذاق طعم اللذائذ النفسية قليلاً، يفهم أن بجانبه بحراً من نور استأنس هو بالظلمات وصار قلبه يطرب أحياناً لنور نجم.

ولا سبيل إلى مثل هذه السعادة إلّا في لقـاء ربك، فـميقاته مـحل

---

١ ـ سورة يس، الآية ٦٨.

ابتهاج وسرور وحيوية حقيقية لا تزول. وحتى بلوغ مقام الوصال، تتلوع النفس الإنسانية بنار الفراق ولا تُهدِّىء روعها اللذائذ الجسمانية ولا تذهب عنها لهفة الطلب أبداً. فيا عزيز النفس شمر ساعد الهمة ولا تستغنِ عن تحقيق الوصال، يقول الإمام علي عليه السلام:

«أسعد الناس من ترك لذة فانية للذة باقية»[١].

فإن قلت: أنا قانع بهذه اللذات الفانية فإن الأسىٰ هو انك حتى لو تخلد الى الأرض وتأنس بهذه اللذات، مع ذلك قد لا تذوق طعم التنعم بها قط، وإذا ذقتها فإنك تتخلى عنها ذات يوم قسراً:

﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[٢].

فيا ايها العزيز! أَوَ تميز لذة المعرفة عن نفور الجهل؟ ماذا عن لذة المحبة. هل تعرف مواطن تباينها عن نفور الحقد؟ وهل يمكن مقارنة هذه اللذائذ بلذة طعام لذيذ أو شراب بارد؟

كتب على جدار معبد راهب صيني:

«البصر الذي يتوجب تجميل الوجه بمائة لون ولون ليرى جماله، والجسم ينبغي تعريته ليُدرِك اتساقه، ولابد من رش حفنة توابل على أي طعام لتذوق طعمه ومن افراغ وعاء عطر على رأس شخص ما لاستشعار رائحته الزكية، فكيف يمكن له رؤية جمال روحي وهامتها وعطرها وطعمها، وهي تقضي في هذا المحراب على أمل لقاء

---

١ ـ غرر الحكم.

٢ ـ سورة سبأ، الآية ٥٤.

داعيها؟!»[١].

فإن كان النظر في الجمال والجلال هناء فطوبى لنفس تنعم بـهناء ورؤية ملكوتية متواصلة بما يتوفر لها وهي في مقام العنديّة وفي مركز نور الجمال والجلال، يقول الإمام علي عليه السلام:

«إن ألذ أثمار الجنة هي المعارف الالهية والنظر إلى وجـه الله ذي الجلال والإكرام».

ولتنظر في أحوال أصحاب الهمم العالية حلل معي حكاية سـيدة عاشت في قصر فرعون، ونهر النيل حوض قصرها، يحوم حولها فيه آلاف الخدم والحشم. اغرورقت من ساقها وحتى قمة رأسها بالذهب والمجوهرات، ولكن نفسها عافت كل هذا. إنها تـعلمت درس الحب. فطلبت من ربها مقام العنديّة، فما أرفعها من همة:

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين﴾[٢].

دعنا نسمع حديث العرفاء ونستطلع أحوالهم على لسان الإمام علي عليه السلام:

«وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عـن مـحارم الله. فـي أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المـنكر

---

١ ـ الدكتور علي شريعتي، كتاب «محمد (ص)، خاتم الانبياء».

٢ ـ سورة التحريم، الآية ١١.

ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك. فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا. حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون. فلو مثّلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة، أُمروا بها فقصّروا عنها، أو نهوا عنها ففرّطوا فيها، وحمّلوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجاً، وتجاوبوا نحيباً، يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف، لرأيت اعلام هدى، ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مقعد اطلع الله عليهم فيه فرضي سعيهم، وحمد مقامهم. يتنسمون بدعائه روح التجاوز. رهائن فاقة إلى فضله. وأسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسىٰ قلوبهم، وطول البكاء عيونهم. لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة..»[1].

فيا ايها العزيز! أوَ لا تفضل العيش في قمة شاهقة على السكنى في وادي أكلة جيف الدنيا الوضيعة وغاية طموحهم لا تتعدىٰ نيل تلك الجيف.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.

«كلام عن التواقين للقاء المحبوب»

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«واستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك»[1].

ولِمَ؟ لأن اللذة والطرب والسرور والبهجة الحقيقية كلها تتحدد بالقرب منه وبلقائه، وما دونهما من لذائذ لا تحمل معها إلّا الغرور والخديعة:

«إلهي بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جُمعت العقول المتباينة، فلا تطمئن القلوب إلّا بذكرك، ولا تسكن النفوس إلّا عند رؤياك»[2].

لقد عقد الوالهون أوتار نفوسهم بطلائع المحبوب. وبذلك غيّبوا عن نفوسهم كل شعور بالتباين. الأجواء هنا تخلو من صراع عقول

---

١ ـ مناجاة الذاكرين، بحار الأنوار، ج ٩٤.

٢ ـ عن الإمام السجاد (ع)، مناجاة الذاكرين.

الفلاسفة. كل ما هنالك هو الوحدة والصفاء.. رؤية يعمها الطرب.

يروى عن أحوال النبي داود ﷺ أن الله عز وجل خاطبه:

«يا داود! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليّ؟

قال: يا رب من المشتاقون إليك؟

قال: إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كل كدر، وانبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إليّ خرقاً ينظرون إلي»[١].

واستمع أيضاً إلى حبيب الله يحدثك عن نفسه:

«المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أثاثي، والشوق مركبي. وذكر الله أنيسي»[٢].

تعمق في هذا الحديث. فالسالك يتوجب عليه أولاً أن يدخر رصيداً من المعرفة ثم يميز، استناداً إلى العقل والتفكير، طريق الخير عن طريق الشر. فثمرة المعرفة والعقل هي الحب. ولما تتعقد أواصر الحب في وجود الإنسان تفقده لهفة وصال الحبيب هدوءه، فلا يعرف للحياة نهجاً ومعنى سوى في السلوك إلى الله على صراط العبودية، جاعلاً ذكره زاده في سبيله خلال هذه الرحلة.

أمعن في الحديث التالي:

«قل لعبادي المتوجهين إليّ بمحبتي ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي إذا

---

١ ـ المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٥٩.

٢ ـ المحجة البيضاء، ج ٨، ص ١٠١.

رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم»[١]

وانظر ماذا يطلب مولى المتقين الإمام علي عليه السلام من ربه في سياق طموح المحب للقاء حبيبه:

«إلهي! هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقةً بعز قدسك.

إلهي! واجعلني ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سراً وعمل لك جهراً»[٢].

ولكن هل هنالك أي وجه تشابه بين هذه التمنيات الواردة في الأدعية، وهي لكثيرة حقاً، مع التمنيات الدنيوية وحتى تمني الحور والقصور وأنهار اللبن والعسل؟!

فيا أيها العزيز! عزز همتك. فتعالي هدفك يستدعي ارسالك الرمح عالياً فأي من التمنيات المجازية إن هو تحول إلى حب يمحو كل ما في القلب إلّا من وجود الحبيب وإن كان عارفاً بفقره وزواله ونقصه. فكيف يكون حب العارف المحب للذات المنزهة من كل نقص وزوال وهو يعرف أن كل جمال وجلال إنما هو قبس من جماله وجلاله؟

١ ـ المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٥٩.

٢ ـ مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

تو را عشق همچون خودى ز آب و گل
ربـــايد هـــمى صـــبر و آرام دل[1].

أخشى أن تقول: لا تلجئنا إلى الشعر فقلما يكون في قول الشعراء الحقيقة. ولكن لي أن آتيك بعشرات الأحاديث في هذا الباب، إنـما اخترت بيتاً من الشعر تنوعاً أطلب به ملاطفة نفسك وقد غرفت كل ما حملته لك من بحر الحب والعرفان. إن لم تكن تـصدقني اسـتمع إليّ أعرض لك هدية حملها معه نبينا الكريم محمد ﷺ من رحلة قربه ليلة المعراج في موعده مع وصال الحبيب لتعلمن أن السعادة والهناء لا يعثر عليهما بالابتحاث:

كان فيما خاطب به الله سبحانه وتعالى نبيه ليلة المعراج:

«.. يا أحمد هل تدري أي عيش أهنأ، وأي حياة أبقىٰ؟

قال: اللهم، لا،

قال: أما العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكـري، ولا ينسىٰ نعمتي، ولا يجهل حقّي، يطلب رضاي ليله ونهاره، وأما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا، وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه ويبغي مرضاتي، ويعظمني حق عظمتي ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كـل سـيئة

---

١ ـ البيت للشاعر سعدي الشيرازي ومعناه:

ـ «حبك لمن امثالك المخلوقين من طين، يفقدك الصبر وهدوء البال».

ومعصية. وينقي قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً.

فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتى أجعل قلبه لي، وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة بها على أهل محبتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي.

وأضيق عليه الدنيا، وابغّض إليه ما فيها من اللذات، وأحذره الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي غنمه من مراتع الهلكة، وإذا كان هكذا يفرّ من الناس فراراً وينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن..»[1].

فيا أيها العزيز! هل رأيت كم من سعادة ولذة حقيقية نالها البعض في خرائب الدنيا هذه! وكم من أبواب منورة فتحت على قلوب عباد مقربين في دار الظلام هذه! فالقلب الذي يطربه الذكر ويذيقه الهدوء لا تسلبه طربه حتى أعتى الأعاصير. والعبد يهنأ في مثل هذا المقام بالسكنىٰ في جنة الأنس. أتركك منشغلاً بالنظر إلى هذا المقام حتى آتيك باخبار تلك الجنة:

---

١ ـ ارشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، الباب الخامس والخمسون: في معراج النبي (ص).

«في مقام الأنس»

قال الإمام علي عليه السلام:

«اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك.. إن أوحشتهم الغربة، آنسهم ذكرك وإن صبت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك علماً بأن أزمة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك..»[1].

في وقت يأنس فيه شخص بزوجه وذاك بزوجته ويشغف عباد الدنيا بحساب الأموال وجمعها واكتنازها لبلوغ الثراء، وفريق آخر بلقاء المعارف والأصدقاء، لا يأنس المفتون بالحق إلّا بذكره.. بل أنه يستوحش من لقاء غيره.

قال الإمام علي عليه السلام:

«ثمرة الأنس بالله الاستيحاش من الناس»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً:

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٧.

٢ ـ غرر الحكم.

«كيف يأنس بالله من لا يستوحش من الخلق»[١].

أما البشرى التي يزفها إلينا رسول الله ﷺ في هذا السياق فإنها:

«من خرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة آمنه الله عز وجل بغير أنيس وأعانه بغير مال»[٢].

ولما كانت التعلقات كثيرة، تضيق بها فسحة القلب فإنها لا تأتي على النفس برصيد سوى الوحشة والاضطراب، ففي تلك الفسحة تبرز مئات الأصنام، ولكنه متى ما جعلها موطناً لسلطان القلوب اتسع القلب له أولاً ثم يهوى بعدئذ بمعول حبّه على الأصنام جميعاً فيصرعها الواحد بعد الآخر، ففيها ذله وهوانه.

يقول الله عز وجل:

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾[٣].

من هنا يغيب جميع الأحبة متى ما ظهر الأنيس السرمدي، فتجدهم يرحلون عن القلب واحداً واحداً.

استمع الآن إلى نفحات سيد الساجدين الإمام علي بن الحسين عليه السلام أثناء الليل:

«إلهي! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، من ذا الذي

---

١ ـ غرر الحكم.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٥.

٣ ـ سورة النمل، الآية ٣٤.

آنس بقربك فابتغىٰ عنك حِولاً.

اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين.. جباههم ساجدة لعظمتك وعيونهم ساهرة في خدمتك ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم متعلقة بمحبتك وأفئدتهم منخلعة من مهابتك»[١].

إلهي! إنك مددت حتى النباتات والحيوانات بالغذاء والماء فاجعل نصيب احبتك أكبر من هذا.

فيا ايها العزيز قرأنا معاً في حديث «المعراج» المنعش قوله:

«فينقي قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً. فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه لي، وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي، وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي».

أمعن في هذا الحديث النبوي الشريف أيضاً:

«ما من عبد إلّا ولقلبه عينان وهما غيب ويدرك بها الغيب فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه فيرىٰ ما هو غائب عن بصره»[٢].

فيا ايها العزيز! ألا ترىٰ ان سماع كلام الله مثل الانبياء والنظر إلى جلاله مثل الملائكة وإبصار عالم الغيب بعين القلب والتجول في

---

١ ـ مناجاة المحبين.

٢ ـ كتاب الوافي، المقدمة الأولى.

ملكوت السماوات أفضل من انقضاء العمر في تمني الماء والزاد والزوج كالبهائم؟ إنك ترىٰ ما يواجهك من عظمة. اجهد لا سيما وإن كنت في ريعان الشباب لتستغل فرصة العمر قبل أن تفوتك، فلا سعادة إلّا في مثل هذا السبيل.

عرضت لك هذه التمهيدات لتدرك قدرتك وتفهم استعدادك لبلوغ العزة السرمدية ألا وهو القرب من الله.

«معرفة الهدف»

أول واجبات أي سالك هو اطلاعه على الهدف من خلقه. إنه يعرف بأنه لم يخلق نفسه بنفسه. فلابد له أن يسأل ربه ما كان الهدف من خلقه؟

فاستمع إلى كلام ربك فيما يخص خلقك:

﴿أوَلا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾[1].

إنك حتى لو تسأل أبويك عن سنة قبل ولادتك وما هو مدى اطلاعهم على أحوالك آنذاك، يأتيك الجواب بالنفي. إسأل نفسك: أين كنت حينئذ؟ لا تملك جواباً غير أن تقول: «كنت في العدم».

ومع اكتسابك لوناً من ألوان الوجود كنت نطفة لا ترى حتى بالميكرسكوب إلّا بشق الأنفس.

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾[2].

---

١ ـ سورة مريم، الآية ٦٧.

٢ ـ سورة الإنسان، الآية ١.

إنك تعجز عن الرد على أي من الاسئلة التوكيدية الموجهة إليك من قبل ربك إلّا أن تقول: إلهي! أنت ربي وخالقي وصانعي. أنت أنبئني بالهدف من خلقي.

فاطلاعك على هذا الهدف هو بداية السلوك والانطلاق وأوجب الواجبات للسالك الى الله. إنك سوف تقضي عمرك في تيه لا ينهيه هدى ما لم تحط علماً بالهدف من خلقك، وتعيه تماماً.

قال رسول الله ﷺ:

«بئس العبد أوله نطفة وآخره جيفة ثم لا يدري ما يُفعل به فيما بين ذلك».

وبالعكس إن عرفت واجبك وحددت مسؤوليتك في هذا السياق تأمن لنفسك حظاً وفيراً من نعم الحياة. هذا ما يؤكده قول الإمام علي عليه السلام:

«رحم الله إمرءاً من أين وفي أين وإلى أين»[1].

إنك تستوعب أن فعل السفيه أو الطفل قد يكون عبثاً ولكن العبث لا يليق بأي انسان وهِب العقل والحكمة. فكيف لك أن تتصور أن خلقاً بمثل هذه العظمة ـ كان الانسان ثمرته ـ قد تم عبثاً، ولم يكن وراء خلق العالم هدفاً.

فاستمع لقول خالقك:

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾[2].

---

١ ـ غرر الحكم.

٢ ـ سورة الأنبياء، الآية ١٦.

﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلّا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[١].

ـ في يوم ما عزمت على التجوال في أرجاء الطبيعة ولكنك قضيت ذلك اليوم في تصفية حسابات محلك. إذاً، لم يكن لك حظٌ من التنوع والتسلي.

ـ ذهبت إلى السينما لمشاهدة فيلم ما، فغلبك النوم فيها حتى انتهاء الفيلم فذقت طعم خسارة المال. والأنكىٰ من ذلك خسارة الوقت.

ـ حضرت درس أحد الأساتذة ولكنك انشغلت أثناء الجلسة بمطالعة إحدى الصحف. فما كان مردودك من الدرس والعلم؟

أذكر لك هذه الأمثلة لتتنبه وأنت تتخذ أولى خطواتك في أي طريق تعتزم سلوكه فيما هو هدفك من فعلك؟ فتحديد الهدف هو الواجب الأهم لأي شاب. فالقضية ليست انهدار ساعة من الزمن أو حتى يوم كامل بل أنك سوف تضيع فرصة عمرك ما لم تستوعب الهدف من حياتك.

والإشارة الهامة هي أن الغايات والأهداف وإن كانت تمثل النهاية في مقام الوصول ولكنها البداية من حيث الوجود الذهني لأنها تواصل باستمرار حث السالك وتوجيهه.

أعني من هذا أنك لو تستوعب أن الهدف من الخلق هو نيل الكمال وتفعيل مواهبك الإنسانية ـ أي تحولها من طور الكمون إلى طور

---

١ ـ سورة الدخان، الآيتان ٣٨ و ٣٩.

الفعل، وبلوغ مقام العندية ولقاء الله ـ حتى لو التفتّ إلى ان بلوغك هذا المقام قد يتم في نهاية العمر، فان تبنيك هدفاً يدفعك في بداية الطريق للانطلاق وتكمن فيه محفزاتك ودوافعك للاستمرار على طول الخط عند كل مضيق.

«الهدف من الخلق أمر لا يحدده إلّا الله»

يحدد الله سبحانه وتعالى الهدف من خلق الإنسان في الآيتين التاليتين:

أولىٰ هذه الآيتين:

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[1].

تذكر الآية بأن الهدف من الخلق هو الابتلاء والاختبار. فالإنسان مخلوق ليحيا حياة سرمدية تحدد طبيعتها بحسب نتيجة هذا الاختبار.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«خلقتم للبقاء لا للفناء»[2].

والمنازل في هذه الحياة السرمدية اكتسابية تكتسب في دار الدنيا.

---

١ ـ سورة الملك، الآية ٢.

٢ ـ غرر الحكم.

قال رسول الله ﷺ:

«الدنيا مزرعة الآخرة».

كما قال الإمام علي عليه السلام:

«الدنيا سوق»[١].

على أية حال، كل ابتلاء واختبار يتطلب أداة ومعرفة. وأداة الابتلاء في الدنيا هي ودائع وضعها الله سبحانه وتعالى في متناول يد عباده:العينان، والاذنان، واليدان، والساقان، وقابلية النطق، والمال والثروة والمواهب. أما موعده فإنه عمر الإنسان منذ سن البلوغ وحتى الموت. المهم هو ما يكسبه باستغلال هذه الأدوات.

فاعلم أنك تسلب هذه الودائع واحدة بعد الأخرى عند الاحتضار، فالأذن تفتقد السمع بالتدريج والعين بصرها واليدان والساقان قدرتها ثم يفتح سجل كل منها ليتضح فيم وظفت هذه النعم؟ فتمنح شهادة التخرج من حياتك الدنيوية لتسترسل طريقك إلى دارك الأبدية.

في هذه الآية يتجلى الله تعالى بإسميه «العزيز» و «الغفور» لتفهم أن عزته في غنى عن عبادتك وابتلائك. فسعيك لنفسك ليس إلّا، وأن ربك يغفر الكثير من هفواتك. وإلّا لم يكن بمقدور أحد غير المعصومين الحلول في دار الوصال.

وثانيهما: الآية:

---

١ ـ غرر الحكم.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾[١].

إنها عبادة تعود ثمارها إلى المخلوق وليس للخالق من حيث:

﴿إن الله غني عن العالمين﴾[٢].

إنه كريم يريد أن يغدق عليك بكرمه، غني يريدك أن تكون على مثل غناه. له حياة أزلية سرمدية ويريد لك مثلها، جميل يريد أن يكشف الحجب عن جماله لعباده. يريد أن يمنحهم كل ذلك في ظل العبودية. فإن كنت متمنياً نيل كل هذه النعم، فتوكل على الله!

دعني أتلو عليك الحديث التالي لتستوعب إلى أين تنتهي بك عبودية الباري تعالى:

«عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي أنا حي لا أموت أجعلك حياً لا تموت، وأنا أقول للأشياء كن فيكون وأنت تقول للأشياء كن فيكون»[٣].

فيا أيها العزيز! أنت عبد لمثل هذا المولىٰ. وأنا أقسم بذاته المقدسة أنه لعظيم مولى ونحن عباد أدنياء. إقرع هذا الباب ولما يُفتح أمامك، فقل: إلهي! أتيتك لتهبني مثل هذا الاعتزاز والفخر فترصع رأسي بتاج عبوديتك وترعاني بفيض ربوبيتك.

---

١ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٦.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ٩٧.

٣ ـ حديث قدسي.

«عبودية ذي الجلال، ذروة الكمال»

الآن وقد استوعبت هذه الأمور تفهم أن الدنيا بكل بهارجها وزينتها ليست هي مطلوب النفس. ربما تكون للجسم الإنساني تمنيات مثل الغذاء اللذيذ، الفراش المريح والمنزل الفخم. إلّا أنها مطاليب لا تطرب تلبيتها نفس الإنسان. فوعاؤها العظيم لا يملأه أبداً تحقيق التمنيات الدنيوية. فمع حصولها على أي من تمنياتها يشعر صاحبها بالخلأ. فهو من جهة يعرف حقيقة فنائها جميعاً ويحدس قرب انفكاكه عنها منذ البداية. فترسم لوعة الفراق دوماً هالة من الهم على إحساسه منذ لحظة تعلقه بها. وهذا ما صد خليل الله ﷺ نفسه عنه بقوله:

﴿لا أحب الآفلين﴾[1].

فالأزكياء الأتقياء يدركون وهم ينعمون بخير الدنيا أن نفوسهم توّاقة لأمر آخر. فابراهيم أدهم ترك قصر السلطان ولاذ بكوخ أنس الرحمن، والعارف العظيم الشيخ البهائي رغم تمتعه بكل عز في قصر

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٦.

الصفويين، ومع ذلك أشاح بوجهه عن كل هذه المزايا واللذائذ الدنيوية.

من هنا لم تستسغ قلوب الملهوفين التعلق بكل زائل وآفل فصار توجهها إلى التمنيات الأزلية الاخروية. وهذا هو أول مواقف المفكرين والنخبة من العلماء إزاء متاع الدنيا والآخرة. والقرآن يوجههم بقوله تعالىٰ:

﴿والآخرة خير وأبقىٰ﴾[1].

ولإعداد زاد الآخرة يندفعون لأداء الحسنات لأنهم سمعوا قوله تعالىٰ:

﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً﴾[2].

والذين يبادرون للحسنات، طموحاً للقاء المنعم لا خوفاً من النار أو طمعاً في نعماء الجنة، لهم مقام أسمىٰ لأنهم يعلمون:

﴿واللهُ خير وأبقى﴾[3].

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن العبادة ثلاث: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً، فتلك عبادة العبيد، ـ وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الأجراء، ـ وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل

---

١ ـ سورة الأعلى، الآية ١٧.

٢ ـ سورة الكهف، الآية ٤٦.

٣ ـ سورة طه، الآية ٧٣.

العبادة»[١].

وأنت تقرأ في مناجاة المريدين عن الإمام السجاد عليه السلام:

«يا نعيمي وجنتي، يا دنياي وآخرتي».

وبالطبع لا يبخل الله على أي ممن يؤدون فروض العبودية له (لغاية معينة) بما يرغبون فيه مهما كانت تمنياتهم وأهدافهم. فما أهنأ عالي الهمة الذي تنكر لكل مجلس إلّا حريم عنقائه.

استمع إلى هذا الحديث الأخاذ:

«العارف إذا خرج من الدنيا لم يجده السائق والشهيد في القيامة، ولا رضوان الجنة في الجنة ولا مالك النار في النار. قيل وأين يقعد العارف؟

قال: في مقعد صدق عند مليك مقتدر»[٢].

فالغاية القصوى في هذه الحكاية هي أما تسديد خدمة أو إحراز نعمة فإن فسحت لك فرصة الخدمة فمالك والنعمة، فالخدمة أعظم نعمة. فكم من مرة رفعت يدي متضرعاً بالدعاء في حضرته فأتيحت لي فرصة الخدمة فانشغلت بالخدمة حتى نسيت الدعاء.

فاحرص إن كنت للدنيا عابداً أن لا تنظر إلى الآخرة، وإن كنت لضمان الآخرة جاهداً أن تعزف عن الدنيا أما لو كنت لله محباً فألق كلتيهما في البحر.

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢.

٢ ـ فردوس العارفين.

يقول رسول الله ﷺ:

«الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا والدنيا والآخرة حرام على أهل الله»[١].

عندها لك أن ترقى هذه القمة لتنظر في صفاته وتعرفه. فأنا أخبرتك أن الحب نتاج المعرفة. فالملائكة لا تشيح بوجهها عنه لما لها من معرفة محددة بتلك الذات الجليلة. فالأمر هو على ما وصفه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

«ووصلت حقائق الايمان بينهم وبين معرفة تعالىٰ، وقطعهم الايقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره قد ذاقوا حلاوة معرفته تعالى وشربوا بالكأس الروية من محبته وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته»[٢].

ولما كان لنفس الإنسان استيعاب يؤهلها لتكون مهبط الأسماء الإلهية جميعاً، فإن الإنسان إذا ذاق شراب هذا الكأس يبلغ من الثمالة ما تتجاوز حد الملائكة المقربين. لا علم لي هل تسمع أحياناً ترنيمة هذه النغمة على آلة نفسك يولدها مضراب الهجران.

---

١ ـ الحديث رواه ابن عباس عن الرسول (ص) بحسب كتاب «الجامع الصغير» للسيوطي.

٢ ـ نهج البلاغة.

دو عالم را به یک بار از دل تنگ

به در کردیم تا جای تـو بـاشد[١]

والآن استمع إلى كشف شأن وحال الملكوتيين في العالم العلوي يأتيك في مناجاة شيقة للإمام السجاد على نفسه الوالهة آلاف التحية والسلام:

«إلهي.. وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفّيت لهم المشارب وبلّغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ورويتهم من صافي شِربك فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا.. فأنت لا غيرك مُرادي ولك لا لسواك سهري وسهادي ولقاؤك قرة عيني ووصلك مُنى نفسي وإليك شوقي وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي ورضاك بُغيتي ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبتي وقُربك غاية سؤلي»[٢].

---

١ ـ معناه:

ـ «نبذنا العالمين دفعة واحدة من القلوب الضيقة، لتكون لك وعاء».

٢ ـ مفاتيح الجنان.

«في أحوال المفتون»

لتفهمن كيف هو حال المفتون وتدرك مبلغ منافعك من الوله، استمع إليّ استنبطها لك من ملخص كلام جنيد يجيب على سائله عن أحوال الوالهين حيث يصفهم بأن تفكيرهم مستدام طويل واختلاءهم بأنفسهم كثير واختلاطهم بالآخرين قليل ولما ينظرون لا يبصرون، وعندما تناديهم لا يسمعون، وإذا حدّثتهم لا يدركون. لا تحزنهم مصيبة عظمى ولا يسرهم نيل مرمى. ينظرون إلى الله في خلواتهم ويستأنسون به.. يناجونه سراً وعلانية. لا صراع لهم مع أهل الدنيا في اعمالهم. يخافون فقدان ما يرومون إليه.. عقولهم تستوحش طلوع جلال الحق.. يقتصدون في الأكل، وفي النوم.. غرقوا مع قلوبهم في الحزن. انشغل الناس بأعمالهم وانشغلوا هم بأعمالهم.. هم في خلواتهم بكاؤون وفي عزلتهم متأوهون.. من كأس وله الحبيب يشربون ومن الناس يفرون[1]..

---

١ ـ نقلاً عن مجلة (سروش)، السنة ١٣، العدد ٥٧٤.

«جولة في رحاب النفس»

قد تقول: وأين أنا من مثل هذا الحب؟!

إن تقصيت أبعاد نفسك سوف تعثر في أعماقها على جمرات كتلك التي تستبطنها الأحجار، يظهر لهيبها إذا تواصل احتكاك الحجر بحجر آخر، فإن التحمت ألسنتها ربما أضرمت النار في غابة كاملة.

وهكذا الحب لو نبع عن النفس صار لهيب نار الوله. ولما تحصل لديك إحاطة معرفية بأن التولهات كلها تتركز في حبيب موحد تتصاعد ألسنة النيران حتى تأتي على نهاية وجودك. عندها ترى أنه لا مدبر لأمرك سوى الله، ترى ولكن ليس بعين رأسك هذه بل بعين بصيرة الحبيب التي جعل قلبك مستقراً لها.

ما عليك إلّا أن تنفرد بنفسك وتفكر فيم كانت وجهة تعلقاتك حتى الآن؟ من هم احباؤك؟ الذين أغدقوا عليك برأفتهم مثل أمك، ومن أصبت منه علماً ومعرفة كمعلمك واستاذك؟ أم من عرفت له قدرة أو جمالاً، ومئات من الأحبة الآخرين؟ إنك عندما تتعمق في هؤلاء

الأحبة تجد حبك لم يكن في ذاتهم بل في صفاتهم، فإن جُردوا عنها ذهب عنهم حبك. هذا درس تلقيناه من خليل الله ﷺ، حيث قال: ﴿لا أحب الآفلين﴾[1].

تحب حياً جميلاً فإن جرد عن الحياة صار منفوراً. وتعلم أن الجمال هو الآخر ظل للحياة وسوف يلتحق عاجلاً بأصله ولا يبقى من الجميل سوى جثة ـ تفقد العلم والاستيعاب والجمال والحياة والبصر والسمع ـ سوف تلقي التراب عليها بنفسك فتعجز عيناك عن النظر إليها بعد ذلك.

على أية حال، حب الصفات الحسنىٰ يكمن في الفطرة والذات الانسانية. وكل ما استهواك حتى الآن له دون شك حظ من هذه الصفات. فليس هنالك من شيء أو شخص يستهوي النفس الإنسانية دون أن يكون له نصيب من «الأسماء الحسنى». وكلما ازداد حظه منها صار يحظىٰ بدرجة أكبر من الحب والإعجاب.

وهكذا الحب بالتحديد إن تولى استاذ ما هدايته اندفع نحو ذات إليها مرد كل جمال وجلال وبهاء وعزة وغنى فلا نقص فيها قط. فيعلم المسترشد أن أي لهيب فاتن يتأجج في قلب ما في حلكة دار الدنيا إنما مصدره مخزن نور الأنوار.

لك ايضاح أوفر حول هذه القضية في موضوع العليّة. إنه مصباح يسلط الله سناه على النفس الإنسانية دون توجيه من رسول فكان له

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٦.

في ذلك «هداية تكوينية» عجنت مع الفطرة الانسانية. هذا ما يقوله الله تعالى في الآية:

﴿فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

فعند الاحتضار تذبل الوجنات وتغيب ما للجمال من لمحات، يذهب البصر عن العينين والسمع عن الأذنين، يعجز اللسان عن النطق والساقان عن المضي، تعود الصفات جميعاً إلى مصدرها وقلبك إن كان مفتوناً بصفات من هذا الحبيب أو ذاك خلال معبر عمرك سوف ترىٰ تحرره وانفكاكه عن الجميع. هذه معرفة يحيط بها الجميع آنذاك ولكن ما جدوى قولك: ﴿لا أحب الآفلين﴾ عندئذ؟ فاليوم يمم وجهك لخالق المفاتن وردد:

«يا خير حبيب ومحبوب»[2].

وقل: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[3].

قد يكون في الشعر تنفيساً عن الكلل واحياء لحيوية المجالس، فدعنا نعرج عليه مع الشاعر حافظ الشيرازي:

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٣١.

٢ ـ من دعاء الجوشن الكبير (مفاتيح الجنان).

٣ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٩.

دور است سَرِ آب در اين باديه هشدار

تا غول بـيابان نـفريبد بـه سـرابت[١]

يذكرني هذا البيت من الشعر بآية السراب في الطـبيعة. فـالسراب تيار هواء يظهر للانسان في الصحاري الجرداء فيخيل له أنه بحر، وما أن يبلغه حتى يعلم إنه انخداع وتصور واه ليس إلّا:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حِسابه والله سريع الحساب﴾[٢].

فعند الاحتضار يبلغ الجميع محل هذا السراب، الجميع بمن فـيهم المفتونون بالأوهام الزائفة أو الذين يحسبون المـؤتمنين عـلى بـعض النعم، أصحاب الأمانات. عندئذ يدركون أن العمر والثروة راحا سدى والتجارة كانت بوراً والزراعة ضربت فيها الآفات تلفاً. لا لرصيد مـن ثواب أدخروا ولا لزاد من حسنات حملوا، ليكون لهـم شـافعاً أمـام حضرة سريع الحساب في يوم ذي جلل، يوم يمسكون بوثيقة خزيهم وهم يقفون أمامه نادمين، يعظون على الأنامل.. فاجهد ايـها العـزيز! لتفتتن في هذا العالم بالحبيب الواقعي.

ايها العزيز! تقصَ كمالاً تتقصّاه فطرياً حتى الحيوانات والنـباتات.

---

١ ـ معناه:

ـ «منبع الماء بعيد في هذه البادية فـاحذر، كـي لا يـخدعك غـول الصـحراء بسرابه».

٢ ـ سورة النور، الآية ٣٩.

الجميع يبغون أعلىٰ قمة في كوامن قابلياتهم واستيعابهم الوجودي، ففراخ الطيور تحطم سور البيوض ولا تقتنع بالسكنى في الأعشاش إلّا أمداً قصيراً لأنها ترغب في التحليق. النوى تنفلق عن براعم تتدافع بين طبقات التربة المتصلبة لأنها تريد وصال ولي نعمتها وهي الشمس الوضاءة فتفتتن بالسماء وهي تمضي حسب قابليتها في النمو والاعتلاء حتى تبلغ ما تريد.

تتجلى هذه الغريزة في النفس الانسانية بما تسمى «الفطرة». فكل انسان مفتون ببلوغ الكمال، يلتحق في صغره بالمدرسة ويتحمل عناء التعلم، يسهر الليالي، يتخلى عن الراحة لأنه يعلم أن العلم كمال. ومن يجعل شغله الشاغل اكتساب الثروة هو الآخر يرنو لمثل هذا الطموح، فالغنىٰ بحد ذاته كمال أيضاً. والراغب في المقام والمنصب كذلك تتعشعش مثل هذه الأفكار في عقله ولكن الحقيقة هي أن الإنسان يطمح للكمال المطلق، وأفضل دليل على ما نخلص إليه هو أن بلوغه أياً من هذه الكمالات لا يشعره بالكفاية .

أواه ما أكثر التائهين في حلكة ليالي صحراء الدنيا بين صفوف الضالين والمغضوب عليهم، لأنهم تاهوا أو تغافلوا عن الصراط المستقيم وهو سبيل اتباع الفطرة الإنسانية.

أسمى تجليات الفطرة، تقصّي الله والرغبة في وصاله

«الدعاء»، كما هو التنفس وكما هو الأكل والشرب، يمثل أحد متطلبات الإنسان الطبيعية لأنه ينبثق من أعماق الطبيعة الإنسانية. فلم تواجه أية أمة أو حضارة مندرسة، ما انتهت إليه من زوال مؤكد، إلّا بانحسار حالة الدعاء من قَبل ذلك بين تلك الأقوام. فالدعاء ليس تهدئة وتخديراً بل هو فوز، فيه لظمأ الروح الإنسانية اشباع، خلافاً للتخدير فيه للوهن استجلاب واستتباع. والدعاء لا يطرق باباً إلّا ويفتح أمامه. ليت الإنسان العصري كان يدرك جمال الله أيضاً مثلما يدرك بالفعل جمال العلم»[1].

ما ذكرته لك لم يكن حديثاً عن الرسول ﷺ أو أحد الائمة عليهم السلام بل كلام كتبه عالم أحياء أحسن فهم هذه الحقيقة وهي أن حاجة

---

١ ـ د. الكسيس كارل الفائز بجائزة نوبل لدفعتين، «الدعاء».

النفس الانسانية إلى العبادة تتكافأ مع حاجة الجسم الانساني إلى الماء والطعام، فمثلما يلاقي الإنسان حتفه أو يصاب بالوهن على أقل تقدير إن لم تُلبَ احتياجات جسمه، فالنفس الإنسانية أيضاً تواجه موتاً سرمدياً إثر ترك العبادة. للإنسان بعد موته الجسماني حياة من نوع آخر ولكن أموات النفس:

﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾[1].

ومن الخصائص الأخرىٰ في الفطرة الإنسانية هي تقصي الله والرغبة في وصاله. فهذه حال الإنسان على مر التاريخ. كل هذه المعابد والمساجد والصوامع والكنائس ومعابد النار وتكايا الصوفية وحتى بيوت الأصنام ما أشادتها إلّا تمنيات النفس هذه.

أيها العزيز! «كل شيء يرجع إلى أصله» والجسم من تراب. من هنا، إلى الماء والتربة والنباتات وجهته، وإليها أيضاً مآبه.

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾[2].

ومع عودة الجسم إلى أصله وهو التراب ينال الهدوء فسكون التراب في التراب وقد يأتي استحباب صب الماء على قبور الأموات في هذا السياق أي للإسراع في تفسخ الجثث والتحاقها بأصلها.

أما النفس الإنسانية وهي من العالم العلوي حيث يقول تعالىٰ:

---

١ ـ سورة الأعلى، الآية ١٣.

٢ ـ سورة طه، الآية ٥٥.

﴿نفخت فيه من روحي﴾[١].

فإن مردها هي الأخرى إلى أصلها، فيتحقق بذلك بشراه: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[٢]، أما إذا لم ينل هذه المرتبة ومقام القرب الإلهي فإنه يكابد من ظمأ وصاله أينما حل ويشتد عطشه مئات الأضعاف إن هو عن الدنيا رحل.

فالنفس المتجردة عن مثل هذا الطموح والتقصي إنما ترتضي بمكاسب الدنيا وبهارجها:

﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها..﴾[٣].

أيها العزيز! الانسان شجرة معكوسة، جذورها في السماء فإن لم يستمد غذاء روحه من السماء أصابه الوهن فيموت من ثم حيراناً تائهاً لا معرفة له بما يجري في طريق يتوجب عليه سلوكه:

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[٤].

أما المستمد وجوده الجسماني من التربة والنفساني من السماء تبسط أمامه موائد نعماء الدنيا والآخرة معاً:

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من

---

١ ـ سورة الحجر، الآية ٢٩.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٦.

٣ ـ سورة يونس، الآية ٧.

٤ ـ سورة الذاريات، الآية ٢٢.

فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[١].

نصيبك من أرزاق الأرض ضئيل جداً ولكن بوسعك أن تستمد من السماء ما يفجر في نفسك ينابيع معرفة يسقي ويرتوي منها الآلاف من أمثالك.

﴿أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض﴾[٢].

وهذه الينابيع المدرارة هي نفوس العرفاء فكؤوسهم النقية تعتبر لنفوس الآخرين مصدر ارتواء لأن كسبها من السماء. ألم تَرَهُ عز وجل يأمر نبيه من أن لا يمسك عنده أسرى حذراً من انعقاد بذرة حب الدنيا في نفسه:

﴿وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[٣].

وعن بلعم بن باعور الذي أدار ظهره لموائد السماء متوجهاً نحو نعماء الأرض، اسمع قوله تعالىٰ:

﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[٤].

قد تقول: من أين لي أن أميز دعوات السماء عن دعوات أهل الأرض؟ فانظر إلى مَ تُدعىٰ؟ فإن كانت إلى ذكر الله، إلى لقائه، إلى

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ٦٦.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٢١.

٣ ـ سورة الأنفال، الآية ٦٧.

٤ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

سماع كلامه فإنها منه وسماوية، وإن كانت إلى المحنة والغفلة والشهوة والتمرد فإنها كلها أرضية وشيطانية.

كن واثقاً أن أبواب السماءِ لن تفتح أبداً في وجه الكفار:

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾[١]. ولكنها مفتوحة على مصراعيها أمامك أنت أيها العزيز السالك إلى الله! فاعلم أن الشيطان يتربص بك الفرص من جهاتك الأربع. وهذا ما يتأكد لك من كلامه هو:

﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾[٢].

أما رأيت أن الشيطان أوصد الطريق عليك من جميع الجهات كما أنك لا تتمكن من أن تخرق الأرض. إذاً، لم يتبق أمامك إلّا منفذ واحد هو طريق السماء المتفتحة باستمرار في وجه العبد المؤمن. فلم يكن أي من أهل بيت رسول الله ﷺ أرضي النفس. وجميع الأنبياء أيضاً سمائيون. أولياء الله جميعاً سمائيون ولكلٍ في السماء مقام يناسبه. ألم تسمع قوله تعالىٰ عن النبي إدريس عليه السلام في الآية:

﴿ورفعناه مكانا علياً﴾[٣].

وعن النبي عيسىٰ عليه السلام:

١ـ سورة الأعراف، الآية ٤٠.

٢ـ سورة الأعراف، الآية ١٧.

٣ـ سورة مريم، الآية ٥٧.

﴿بل رفعه الله إليه﴾[1].

وينوّه لي ولك بأن:

﴿نرفع درجات من نشاء﴾[2].

فارفع، إذاً، يديك نحو السماء.. وترنم بدعاء عذب مع ربك أن: إلهي! بعزة الذين، بهمتك، عن كل ما في الأرض صرفوا النظر وبينابيع السماء علقوا البصر، لو لم نكن أهلاً للتشرف بحضرتك فلا تسلبنا في الدنيا والآخرة نعمة التقرب بهم إليك.

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٥٨.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٨٣.

«قانون العلية طريق رئيسي إلى الله»

«التحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[1].

من الخصائص الفطرية الأخرىٰ في الإنسان، وربما كانت أعظم موهبة وهبها له الله، هي الرغبة في تقصي العلل وأسبابها وتحليلها. فأنت ترى الطفل مع تمكنه من النطق ينساق جل كلامه في سياق كشف الأسباب: أين تذهب الشمس في الليالي؟ في أي فراش ترقد بعد غروبها؟ من أين تأتي الأمطار؟ إلى أين تتجه الغيوم عندما تغادر سماء مدينتنا؟

أما حياة الحيوانات فبدايتها، بحسب ما يستوحىٰ من المتحجرات، سبقت حياة الإنسان، ومع ذلك فإن الحيوانات الحالية تعيش كما كانت حيوانات ما قبل التاريخ تعيش، تطلب الرزق مثلها، تحيا مثلها وتبني أعشاشاً وأوكاراً مثلما كانت لتلك. خلافاً لحياة الإنسان التي شهدت

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

كل هذه التحولات. فإن أمعنت تجد أنها كلها من فيض البحث والاستناد إلى قانون العلية. فرأس إبريق الماء يبدأ بالاهتزاز عند بلوغ الماء درجة الغليان اهتزازاً يراه الجميع. هذا ما شغل «واط»[1]: «يا ترى من يثير هذه الحركة؟»، وبالتحري عن سبب ذلك توصل في النهاية إلى اكتشاف قوة البخار.

ونيوتن كان نائماً تحت شجرة، ورغم سكون الهواء يرى تفاحة تسقط على الأرض من الشجرة.. ولكن لا رياح تهب ولا حركة تعتري الأغصان! راح يفكر: أية قوة أسقطت التفاحة الناضجة من الغصن؟ فهذا البحث والتقصي أثمر اكتشاف قوة جاذبية الأرض. إننا قلما نجد اكتشافاً أو اختراعاً لم يكن لفكرة العلية دخل فيه بينما يحتمل أن لا يكون للحيوانات حظ من هذه الفطرة.

مر رسول الله ﷺ، وهو يمضي في بادية ما برفقة أصحابه، بخيمة عجوز راحت تمتدح النبي ﷺ. فسألها ﷺ كيف عرفته وهي في أقاصي هذه البيداء؟

فأجابته العجوز وهل لها أن لا تعرف رسول الله ﷺ.

عاد رسول الله ﷺ يسألها ومن أين عرفت الله.

كانت العجوز منهمكة بالغزل فتركت عملها فتوقف المغزل المتحرك، وأردفت أن حركة المغزل دون يدها أمر لا يحدث أبداً. وهل كل هذه الحركة في عالم الوجود تكون في غنى عن

---

١ ـ مخترع آلة البخار.

المحرك.

بسماع هذا الاستدلال قال ﷺ لأصحابه: «عليكم بدين العجائز».

التفت كيف أن عجوزاً تسكن أقاصي مناطق الصحراء تثبت وجود الله بالاستناد إلى قانون العلية. ولكي لا نتوقف زيادة عن هذا الطريق الرئيسي، تعمق بدقة أكبر في الموضوعات التالية:

«العلة والمعلول، شطرا عالم الوجود»

العلية موجود ينشأ عن وجوده وجود شيء آخر يتلاشىٰ بتلاشيه. هذا هو تعريف «العلة التامة». فالعلة التامة هي العلة الكافية بمفردها لايجاد المعلول مثل علية الشمس لأشعتها. دقق في مثل هذه العلة فلا يمكن تصور إبقاء المعلول على وجوده ولو للحظة واحدة دون العلة. فالمعلول في الحقيقة هو ظل العلة ولا ظل دون ظليل اي يـمكن أن نقول أن المعلول في مثل هذه الحالات لا يملك لنفسه شيئاً إلّا الفقر المطلق. ولما كان الفقر صفة عدمية فالمعلول مـعدوم لا مـحالة دون العلة.

والحالة الأخرى في هذا النوع من العلة هي أن المعلول يمثل في كل ما يملك مرتبة أدنى صفة من صفات العلة. فأشعة الشمس دافئة حارة إلّا أن الدفء والحرارة في الحقيقة هي مرتبة نازلة مـن حـرار الشمس. أشعة الشمس منيرة تنير نصف الكرة الأرضـية فـي القسـم النهاري ولكن هذا النور مرتبة نازلة من نور وضوء الشـمس. أشـعة

الشمس مصدر من مصادر الطاقة. طاقة ولدت الحياة على كوكب الأرض ولكنها في الحقيقة تستجدي الطاقة من الشمس وطاقتها مرتبة نازلة من طاقة الشمس.

هاتان الحقيقتان هما في الواقع مقومتا المعرفة التوحيدية. وما أثمنها! فافهم!

وهذه القضية هي التي تضيق الخناق على الفيلسوف الكبير صدر المتألهين الذي كان يتنكر للتوحيد العرفاني بادئاً، فيذعن لهذه الحقيقة عند عرضه لموضوع العلة والمعلول في كتابه القيم «الأسفار»، حيث يقول:

﴿الآن حصحص الحق﴾.

وبالنظر لهاتين الحقيقتين إلى جانب كون قيام المعلول هو قيام العلة فإنه يرافقه أبداً ولا يتخلى عن معيته للحظة ولكنها ليست معية مادية بل قيومية.

الآن وقد تنبهت لهاتين الحقيقتين المنيرتين، فاعلم أن العالم معلول. وعلته التامة هي ذات ربه وخالقه ومصوره. فكيف يكون لنا أن ننظر في العالم ولا نرى خالقه فيه.

إنك تذعن للعلة في ظل المعلول بعلم اليقين فكيف لا يبلغ يقينك بخالق العالم هذه المرتبة؟ دعني آتيك بمثال محسوس:

وأنت تجلس في غرفة بدارك قد يسألك شخص ما: هل غربت الشمس لنؤدي فريضة الصلاة؟ تقول: ألا ترى أشعة الشمس أمامك

على الجدار؟

أنت في الظل، والشمس نفسها بعيدة عن ناظريك ولكن أشعتها تتجلى على الجدار. فلم يخيل إليك ولو للحظة واحدة أن أشعة الشمس قد تكون ظاهرة دون وجود الشمس. فوجود الشمس في هذا المثال كان بالنسبة لك أمراً مسلّماً به أكثر من رؤية أشعة الشمس.

الآن وعيناك تعجزان عن التركيز في منظر الشمس الساطعة أنظر إلى أشعتها ليأنس بصرك بالنور. فليس لأشعة الشمس ما تظهره إلّا ما أخذته عن الشمس. وللشاعر حافظ الشيرازي مثال رائع في هذا الموضوع حيث يقول في بيت من أشعاره أنك إن رغبت في استشمام عبير الورد في فصل الخريف تجد جمال الورد قد احتجب في فصل استتاره، فعليك بالسوق فإنه يعج بماء الورد وماء الورد لا يعبق برائحة إلّا ما كسبه من الورد نفسه. ولك أن تتقصى رائحة مطلوبك في هذا السائل المتوفر:

در كار گلاب و گل أزلى اين بود

كاين شاهد بازارى، آن پرده نشين باشد[1]



١ ـ معناه:

ـ «كان في أمر الورد ومائه هذا الحكم الأزلي، أن يكون لذلك المحتجب شاهد، هذا السوقي».

الآن أدركت معنى الحديث الذي جئتك به عن الإمام علي عليه السلام في مطلع بحثنا حول التجلي، حيث يقول:

«الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[١].

العبارة تستهل بالحمد لحضرة الرب الذي لم يحرم العباد من النظر في جماله بل عرضَ نفسه لهم من خلال خلقه.

ولكن اعلم ان للوجود عوالم أحطها شأناً هو عالم المادة الظاهر في الأرض أي «عالم الخلق» و «الناسوت»، وعلته «عـالم المـلكوت». وعلة «عالم الملكوت» هي «عالم الجبروت». وعلة جميع هذه العوالم هي ذات الحق تعالىٰ. وملكوتك في وجودك هو «عالم الأمر». وهي نفسك ذات الارتباط بعوالم «القلب» و «السرّ» ومراتبها، حيث تتدرج فيها حتى تبلغ علة العلل وهو خالقك وربك.

فيا أيها العزيز! النفس معك، والملكوت والقلب معك، وحضرة الرب معك. وكل مرتبة من وجودك فقيرة إلى المرتبة الأعلى والمراتب كلها فقيرة لغنى حضرة الحق، فلولا قيمومية حضرته لا رئـة تـتنفس ولا قلب ينبض ولا شوط يقطع ولا كلام ينساق على لسان:

«لا حول ولا قوة إلّا بالله».

فيا أيها العزيز! أيهما أقرب إلى أشعة الشمس؟ الشـمس ذاتـها أم الجدار الذي ترتسم عليه؟ قد يقول الحمقىٰ: «الجدار هـنا والشـمس تعتلي السماء!»، والعقلاء يعلمون أن الشمس معها ها هنا وهي أقرب

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

إليها لأنها في نفس هذه اللحظة لا تملك شيئاً من نفسها سوى ما اكتسبته من الشمس. إن حصلت لديك القناعة بهذا الكلام يكون بوسعك أن تفهم معنى الآيتين الشريفتين فهماً مطلوباً:

ـ ﴿هو معكم أينما كنتم﴾[١].

ـ ﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٢].

وكذلك قول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[٣]. فمن حيث الاختلاف المكاني تجد الشمس في كبد السماء ونورها على الأرض ولكن الوجود الصمدي لحضرة ربنا يعمّ جميع عوالم الوجود.

فالأحرى بك وأنت قد اطلعت على هذه المعارف المثيرة أن تخضع جميع عوالمك لحضرة ربك خضوعاً تتمثل فيه بنبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في سجداته المباركة حيث وصف حاله فيها بقوله:

«سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي»[٤].

واستمع إلى كليم الله بم يحاور ربه:

يارب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك فإني أحس صوتك ولا

---

١ ـ سورة الحديد، الآية ٤.

٢ ـ سورة ق، الآية ١٦.

٣ ـ انظر «اصول الكافي»، ج ٢.

٤ ـ مفاتيح الجنان، أعمال شهر شعبان.

أراك فأين أنت؟

فقال الله: أنا خلفك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك. يا موسى! أنا جليس عبدي حين يذكرني وأنا معه إذا دعاني»[١].

وأنت تتدرج في مراتب عوالم وجودك، لك أن تردد هذا الدعاء عن أمير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«اللهم نوّر ظاهري بطاعتك وباطني بمحبتك، وقلبي بـمشاهدتك، وروحي بمعرفتك وسرّي باستقلال اتصال حضرتك».

---

١ ـ ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٤١٥.

«عالم الخلق حجاب الخالق»

مع علمك بأن عالم الخلق هو عينه المعلول الذي لا يملك لنفسه شيئاً إلّا ما وهبه خالقه. ولما كان الإنسان يواجه هذا العالم بالتحديد فإنه إن لم يهتد به إلى العلة يهيم في عالم الخلق نفسه غافلاً عن مصيره. وقد قال تعالىٰ في شأن مثل هؤلاء الأشخاص:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[1].

فلكل ظاهر باطن إن لم يلتفت إليه الإنسان خيل له أن الظاهر أصل الشيء. وهذا العالم يمثل حجاباً رصيناً عظيماً يحول دون نظره إلى الباطن.

ـ «لا حجاب بينه وبين خلقه إلّا خلقه»[2].

ـ «خلق الله الخلق حجاب بينه تعالىٰ وبينهم»[3].

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٧.

٢ ـ انظر كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق.

٣ ـ المصدر السابق.

من هنا عظّم الله تعالى مكانة المتقين الذين يحولون أنظارهم عن الظاهر ويوجهون باصرتهم إلى غيب العالم وهو باطنه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[١].

ونقرأ في كلام منعش للإمام الحسين بن علي عليه السلام:

«إلهي! أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار»[٢].

وليس في عالم الخلق أي حجاب أعظم سمكاً من «أنوية» الانسان. ولهذا يقول العظام:

«دع نفسك لخالقها يفعل بها ما يشاء لا تدخل في البين»[٣].

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣.

٢ ـ من دعاء «عرفة».

٣ ـ «مكاتيب عبد الله قطب الشيرازي»، ص ٤٩٨.

«عالم الوجود، تجليات صفات الحق»

«بأسمائك التي ملأت أركان كل شيء»[1].

خلصت مما مر بنا من مقدمات وتمهيدات أن صفات العلة تظهر بمراتبها النازلة في المعلول. وفي أي عالم كلما نأى المعلول عن علته الأولية انحسر مدى تجلي تلك الصفات في المعلول أكثر فأكثر. من هنا فإن ما تراه في عالم الملك هذا من صفات واسماء حسنى: كرم وجمال وبهاء وجلال، كلها تجليات لصفات علة العلل. وبتعبير آخر تكون نسبة العلة إلى المعلول كنسبة الكمال إلى النقص أو قُلْ: نسبة الباطن إلى الظاهر. إذاً، النظر في الظاهر هو، في الحقيقة، نظر في الباطن. فالظاهر هو من مراتب وجود الباطن، وفي الحقيقة تجلي عين الارتباط .

فعلى سبيل المثال دقق في أن جانباً من علم أي محاضر يكشف للمستمع عنه من خلال الاستماع إلى كلامه. ولكن معدن علمه يكمن

---

١ ـ من دعاء «كميل».

في ملكوته ونفسه. إلّا أن هذا الظاهر نفسه الذي تصغي إليه في عالم الشهود له ارتباط بمخزن علمه ذاك. وهذه غَرفة من بحر معارفه.

الآن وقد التفت إلى هذه المراتب لتعلمن أن ما يستهويك من صفات عالم الملك، وهو آخر معلول للعلة التامة، ويتسبب أحياناً في توقفك ومراوحتك في هذا العالم عينه، هو قبس من الصفات الجذابة لحضرة علة العلل والتي تتجلىٰ لك أكثر فأكثر عند التحاقك بعالم المثال، ويزداد انكشافاً أمامك بمجرد بلوغك عالم التجرد.

وما تلاقيه من شدائد ومصائب وآلام في هذا العالم تجدها علـى درجة أكبر من المعاناة والحدة في عالم المثال والبرزخ، وأضعاف ذلك في عالم التجرد.

على هذا إن كنت من أهل التقوى والإيمان تكون رحلتك من اسفل السافلين إلى أعلى عليين سيراً من العتمة القاتلة في النفوس إلى إشراقة القلوب، وإن كنت من أهل الكفر والنفاق والخطايا تكون سيراً من جنة الملك إلى نار الملكوت. وهذا هو مفهوم الحديث النبوي الشريف:

يقول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[١].

فالمؤمن المطلع على ما أعد له من جنات ونعيم يحسب الدنيا سجناً والكافر يعرف ما يواجهه من معاناة وعذاب فيرى الدنيا جنة.

---

١ ـ مسند الرسول.

استمع إليّ أنقل لك فحوى كلام صدر المتألهين في هذا المجال، حيث ينوّه إلى أن كل شيء إنما هو من آثار خالقه وموجده، وانه ليس هنالك في المعلول شيء لا يكون في العلة ما هو أرقى وأفضل منه. وعلى هذا، كل الأشياء الجذابة والملذة المتواجدة في العالم الجسماني والطبائع المتحولة هي نماذج ومستورات لما يوجد في عالم النفوس ونشأة الجنة ودار البقاء حيث يقول الله عز وجل ﴿فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وانتم فيها خالدون﴾. وعلى نفس هذا السياق تعتبر جميع لذائذ النفس ونعم الجنة مثل الاشجار والأنهار والدور والحور وغناء الطيور، كلها آثار وعلامات لما هو موجود عند الحضرة الالهية[1].

واعلم أيضاً أن ملذات ذلك العالم لا تقاس بملذات هذا العالم حدة أو خفة. من هنا نرىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ ومع إكثاره من الإشارة إلى تلك الملذات في القرآن الكريم لكنه يقول:

﴿.. فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين جزاء بما كانوا يعملون﴾[2].

من هنا، وانطلاقاً من هذه المعارف والأنوار المنيرة في النفوس، لا تقل من هنا فصاعداً أنني لا أرى الله. فأنت فيم نظرت تشعر بحبل غيرمرئي يربط ذلك الشيء بحضرة الحق تعالىٰ. وهذه الرؤية هي وجهة نظر العرفاء. فالاستلهام من العالم الذي يواجهك بحسب النظر

---

١ ـ انظر «الأسفار».

٢ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

العرفاني يهديك السبيل ذهنياً إلى استيعاب مشاهد عالم المثال في صور موجودة ولكن لا وجود لها في ذاتها الا أنها تمثل بالنسبة لك مرتقيات توصلك إلى حضرة «المصور». فلو حظيت بمثل هذه الرؤية تلتحق، عندئذ، بزمرة أصحاب القلوب (العرفاء).

يروي أبو بصير عن الإمام الصادق ﷺ أنه لما سأله: أخبرني عن الله عز وجل، هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال ﷺ: «نعم. فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ألست بربكم قالوا: بلى. ثم سكت ساعة ثم قال: وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة. ألست تراه في وقتك هذا؟

قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك، فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا، فانك إذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر. وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين. تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون».

***

تعمق في الآية:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَلم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد. ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم، ألا إنه بكل شيء محيط﴾[1].

---

١ ـ سورة فصلت، الآيتان ٥٣ و ٥٤.

تعرض هذه الآية كما ذكرنا في مستهل الكتاب طرق ثلاثة لمعرفة الله أولها المعرفة الآفاقية وثانيها معرفة النفس وثالثها معرفة تستغني بها متى ما أحرزتها عن المعرفتين الأولىٰ والثانية. والله كـذلك يـؤكد على أنه ألا يكفي المفكرين أن الله شاهد قيوم على كل شيء ويحيط بكل شيء علماً. وهذا البرهان هو «برهان الصديقين». وقد اتـضحت لك طريقته تماماً في موضوع العلة والمعلول. الملفت في هذه الآية هو تأكيدها على أن مقام لقاء الله أمر ممكن في هذا العالم للعارف.

سأل كافر الإمام الصادق عليه السلام عما يعنيه نزول الله إلى السماء الدنيا فأجابه بأنه ليس كنزول جسم إلى جسم آخر ثم اردف عليه السلام يقول:

«ولكنه ينزل إلى السماء الدنيا بغير مُعاناة ولا حركة، فيكون هو كما في السماء السابقة على العرش، كذلك في سماء الدنيا، إنما يكشف عن عظمته ويُري أولياءه نفسه حيث يشاء، ويكشف ما شاء مـن قـدرته ومنظره بالقرب وبالبعد سواء»[1].

وهل يعود من يفوز بمقام هذا اللقاء وينال منذ الآن جنته الأولى، ليتمنى من بضاعة الدنيا المزجاة؟! وهل هنالك فاتن يـمكنه إشـغاف مثل قلبه؟!

فيا ايها العزيز! إن أنت بلغت محطة «مقام اليقين» من هذا الطريق الرئيسي فقد نلت أعظم السعادات حتى أنك تعجز عن أداء حق شكره:

يقول الإمام علي عليه السلام:

---

١ ـ «التوحيد» للشيخ الصدوق (ره)، حديث الزنديق.

«ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين».

اليوم تتلقى الرجاء بان أقِدم وأنت تحجم عـن التـلبية. يـقال لك: سارع إلى هذا السبيل، ولكنك لا تبرح مكانك. ثم تأسف بعد ذلك لما فاتك عند مضيك بجانب هذه الرياض والبسـاتين ان: لمـاذا حـرمت نفسي من التنعم من هذا العطر المنعش في الأسحار؟ وإن لم تمض من هناك فسوف تعرض عليك جميع البساتين بعد موتك لتسحب بعدها متلوعاً بنار الحسرة إلى صحراء لا أثر للجمال فيها.

وأعلم أن المعلول تجل وحادث بينما العلة وجود حـقيقي قـديم، فالراحل من عالم التجليات الى الوجود الحقيقي يكون قد بلغ حقيقة تجعله يواجه الموت مرحباً.

ولهذا نجد أن النبي ﷺ يطلب من الله عين تهمل الظاهر وتـرىٰ الباطن، فيقول:

«اللهم أرنا الأشياء كما هي»[١].

---

١ ـ مسند الرسول.

«مانح الشيء لا يفتقر إليه أبداً»

ايها العزيز! إلى هنا فهمت أن نسبة المعلول إلى العلة هي نسبة الظاهر إلى الباطن. فكل ما في الظاهر يوجد الأكمل منه في الباطن، وما في الباطن رشحة من رشحات باطن الباطن. فالغمامة لو كانت تفتقر للماء ما كانت تترشح عنها الأمطار وما تحتويه الغمامة من ماء يتجاوز في مقداره ما تتنزل منها من أمطار تغدق بقسم منها على هذه الديار، وبقسم آخر على ديار أخرىٰ. ولما كان غناه بالماء أقل من غنى علته وهو البحر، فمعدن المياه ومخزنها جميعاً هو البحر. فإن نسبت قطرة من الماء الرطوبة والحياة إلى نفسها فذلك يعود إلى جهلها.

ذكرت هذا الموضوع على سبيل المثال لتعلم أن جسم الإنسان في جميع ما يؤديه من أعمال ويبديه من مظاهر وجودية فإنه معلول، علته نفسه الانسانية، لها انقياده ومنها وجوده وحياته، فدوام الجسم للحظة دون هذه النفس أمر مستحيل. ووجود النفس عينها ومع غناها لا يكون ممكناً ولو للحظة واحدة دون نظر الرب. فالجسم فقير إلى

النفس والنفس إلى حضرة الباري تعالىٰ وهو الغني المطلق:

﴿يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[١].

الآن وقد التفت إلى هذه الحقيقة، عممها على جميع مخلوقات عالم الوجود بدءاً من السماء بجميع ما في مجراتها من عظمة وانتهاءً ببعوضة صغيرة، فكلها تجليات. والتجليات يتوقف وجودها على ذات المُظهِر، فدون ارادة المُظهِر تعود أدراجها إلى حيث كان مبدأها أي إلى العدم.

إذاً، أي موجود ينسب لنفسه وجود إنما وجوده الحالي يأتىٰ من «علة العلل» ونسبته الحقيقية ذات ارتباط مع العدم وليس له من مظاهر الوجود إلّا على قدر ما منحت من حقيقة ذات الموجِد. وفي الختام تعود تلك الحقيقة إلى منشئِها وهذا الموجود إلى اصله حيث يقول الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿كل من عليها فان، ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[٢].

فللإنسان حظ من الكمال على قدر ما يُمنَح من كمالات موجده وخالقه.

وعلى مدى اهتدائك إلى حقيقة وجود البحر بالنظر إلى أية قطرة أو نهر، يمكنك أن ترى خالق أي موجود من النظر في ذلك الموجود. ويكون أي موجود أكثر تبييناً لتلك الحقيقة الواقعية كلما ازداد تنعمه

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ١٥.

٢ ـ سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

منها. هنا تدرك أن ذلك الباطن إنما عرض حقيقته من خـلال ايـجاد الظاهر.

﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾[١].

فالفيض الإلهي متماثل في تنزله ولكن كل موجود ينال منه على قدر استيعابه فليس هنالك من موجود لا يكـون مسـتعطياً مـن ذات موجده. من هنا يعود كل وجود، وظهور وتجل إلى «الوجود المطلق».

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ١٧.

«العالم معرض لأسماء الله»

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»[1].

كل غني راغب في إبداء غناه، وكل شاعر ارتجز شعراً بديعاً يؤلمه أن لا يهتدي إلى مجلس يمكنه إلقاء شعره فيه، وكل رسام لا يعرض لوحاته يرى أن موهبته ذهبت سدىً.

وهذه الرغبة من المخلوق هي الأخرىٰ اكتسبها من ذات الخـالق. وكلما تعالى مستوى الحسن كان ميله للظهور أقوى، فـالمستودعات الجوفية متى ما اكتظت بالمياه ينبثق ماؤها من بين التربة.

فإن قلنا أن الكنز هو خزان مكتظ وملآن بالذخائر الثمينة فإن ذات الحق تعالى هي أكثر امتلاء من كل ملآن واكثر اكتظاظاً من كل مكتظ. إنه مملوء بصفات الجمال والجلال. فقال:

«.. فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

إذاً، الهدف من الخلق هو معرفة الله، وقد أودع الله تعالىٰ هذا الهدف

---

١ ـ حديث قدسي.

في ذاكرتك لتحدد أهداف حياتك بما ينسجم مع هذا الهدف الأساسي.

وبقوله: «كن» تجلىٰ جماله الفاتن من عتمة العدم فاهتز الوجود في كل مخلوق على أنغام خالقها الشيقة، اهتزازاً وتراقصاً كتب له الاستمرار حتى موعد إياب الموجودات إلى ميقات الفناء في الله. وهذه الحركة يطلق عليها في الفلسفة اسم «الحركة الجوهرية». الجميع يقفون وجهاً لوجه أمام ربهم الله، يرددون نغمة **﴿وإلى الله المصير﴾**[1].

في هذا المعرض العظيم ألبس حضرة «الرحمن» العدم، من رحمة الوجود ثوب الكينونة لينظر في كل من الموجودات إلى نفسه:

«برحمتك التي وسعت كل شيء»[2].

وبيّن حضرة «ذي الجلال» عن جانب من عظمته وجلاله لمخلوقاته فيما خلق من سماء عظمى ومجرات لا متناهية.

فمن طلوع الفجر وحتى طلوع الشمس، كم مرة تتحول السماء من لون إلى لون؟ الخضار والرياحين إلى أي مدى تداعب نفوس بني الإنسان حقاً؟ الأزهار والبراعم ماذا تهدف وراء عرض جمالها الخلاب؟ أجنحة الطيور اللطيفة، أنامل أي رسام ابتدعتها؟ أي مطرب وأي ملحن يطلق ألحانه المنعشة من حناجر الطيور البديعة الأجنحة؟ وهل يكون ذلك إلّا كشفاً من حضرة «الجميل» لحُجب جماله المنعش؟

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٢٨.

٢ ـ من دعاء «كميل».

ألم يكشف لبني الانسان في عصر الفيزياء الذرية هذا عن عالم أسرار الالكترونات والبروتونات وشحناتها الباطنية وطاقتها الذاتية العظيمة؟ واعلم أن باطن الذرات ما زال يكتنز، في خلقه، آلاف الأسرار. من هنا ذهب انشتاين إلى أن الخلأ النسبي في داخل الذرات أعظم من خلأ المجرات.

ألم تر تجليات تدفق الرحمة الالهية وأنت تتجول في عالم العلم والمعرفة خلال دراسة الخلايا النباتية وأقسامها وعددها في كل من الجذور، والسيقان، والفواكه والثمار، والبراعم والأزهار.

ألم يشهد علم الأحياء على مر الأيام الكشف عن سر من أسرار جسم الحيوانات؟ لا سيما في عصرنا هذا الذي صار علم الوراثة يقف مذهولاً إزاء أسرار ما أعظمها، كانت مستترة وراء حجب الجمال.

في جسمك عدد من الخلايا تتوصل إليه إن وضعت (١٣) صفراً أمام العدد (١)، كل منها يؤدي وظيفة ما، وكل عضو يتعهد بخدمة ما. مهمة مد جميع مخلوقات الجسم بالغذاء تكفل بها القلب ومهمة تنقية الدم الرئتان، وتصفية الدم الكليتان، واعداد الطعام لكل هذا الجمع الغفير المعدة، وحكومة قارة الجسم وإدارة شؤونها الدماغ. هنالك كان الحديث عن الجمادات والنباتات، وهنا عن جسم الحيوان فمن يكون مدبر هذه الأمور حقاً سوى حضرة العليم:

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾[1].

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٢.

تعلم أن جو الأرض ومقدار ما يحتويه من اوكسجين محدود وثابت. وأن الكائنات الحية ما زالت منذ بداية الخلق تستهلك الاوكسجين. من المسلم به في الحالات الطبيعية يأخذ حجم هذا الغاز، بمرور السنين، بالانحسار حتى فنائه أخيراً. بينما نجد النباتات خلافاً للحيوانات والانسان تنتج الاوكسجين وتأخذ الكاربون من دورة الطبيعة، مما أوجد حتى الآن توازناً تاماً ودائمياً. وكيف تتم يا ترى هذه العملية الحكيمة إلّا بتجل من حضرة «المزكي»؟!

وانظر أيضاً أي حجم من المواد الغذائية يحولها بنو الإنسان والحيوانات يوماً إلى فضلات، كم يبلغ حجمها على مدى الشهر وكم في السنة الكاملة؟ في الحالات العادية كان من المفترض أن تغطي كل هذه القاذورات والأوساخ سطح الأرض إلى الآن فيعيث فيها الجو فساداً وتعفناً. ألم تر كيف تحول الأرض والنباتات نفس هذه الفضلات إلى أفضل العطور والأزهار الزاهية فتثمر من كل وساخة العشرات من مظاهر الجمال. إن كنت في شك من تبديل السيئات إلى حسنات فبقراءة هذه الأسطر اشطب كل شك من بالك بحضرة «مبدل السيئات بالحسنات».

وفي كل خريف، لك أن ترى حضرة «المميت»، وأن تتفرج في كل ربيع على حضرة «المحيي». ألم تر حضرة «الرزاق» بنظرك في تربة الأرض البخسة وهي تمنح كل هذه البقول والأثمار ومن ثم، بتغذي الحيوانات منها، اللحوم والسمن والحليب والجبن والصوف والشعر والجلود؟ ألا تنمو الحياة من نفس هذه المواد الغذائية الفاقدة للحياة؟

ألا ينتهي وجود هيكل كل حي بالممات؟ ألم تشاهد يومياً في دور الولادة والمقابر حضرة ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾[١]. الكل يقدمون إلى الحياة دون خيار منهم فينشغلون برهة بالنظر إلى العالم، ثم يشدون الرحال تاركين هذه الدار يوماً آخر. حقاً من هو راعي هذه القافلة والمسيّر لها؟

﴿ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾[٢].

إلهي! عرفتك معرفة لم أبنها على صرح الأوهام والتخيلات بل تفحصتك أولاً على مر اللحظات، في تتالي الليل والنهار، في انفلاق الصبح المنعش، في الليالي القمرية، في هبوب الأنسام، في انفلاق البراعم، في رنين قطرات الأمطار المتساقطة، في صوت رفرفة أجنحة الطيور، في ثرثرة السنونو، في خرير مياه الأنهار، في ثمالة العندليب، في حركة الغيوم المثقلة، في تحية كل برعم اخترق التربة، في حنان الأم في كل مكان. لم أر في أي مكان سواك ولم أسمع صوتاً من غيرك كما لم أتحدث عن غيرك قط.

---

١ ـ سورة الروم، الآية ١٩.

٢ ـ سورة هود، الآية ٥٦.

«الحب الالهي وليد معرفة أسمائه»

ايها العزيز! نشر حضرة الحبيب نفحه من ممكنات الغيب على عالم الشهود فكشف بها عن سيمائه الخلابة وأزاح الحجب عن سر الباطن، فأظهره في مرآة اسم «الظاهر» فهل تعرف ماذا أراد.

قال تعالىٰ:

«لكي أعرف».

تقول: عرفته، ولكن ما يريده من معرفة ذي أثر بليغ مدهش وهو اقحام سلطان الحب في قلب الناظر اليه، فالحب وليد المعرفة.

فهذا الجلاء يستجلب الحب.. فلولاه لا سبيل لك الى هذه الحضرة.

الحب هو هدف الذات المقدسة من الخلق حيث قال «أحببت» فلولا هذا الحب لم يضرب أي موجود، انطلق من عتمة العدم، خيمة في باحة الوجود.

الآن إن كانت نيران الحب قد تأججت في نفسك، دعنا نلبث هنا قدراً لأردد لك بيتاً من الشعر عن لسان الشاعر حافظ:

رهرو منزل عشقيم و زصحراى عـدم
تا به اقليم وجود اين همه راه آمده‌ايم
سبزهٔ خط تو ديديم به صحراى وجود
به طلب كارى اين مهر گياه آمده‌ايم[١]

فريعان خطه (جلال أثره) يولد حـباً فـي صـحراء الوجـود وذلك الريعان يتمثل في اسماء الله التي اسماها الشاعر حافظ في شعره «ست الحسن» و «ست الحسن» دواء مانح للحب.

هل سقيت حتى الآن من كأس «ست الحسن»؟ هـل ثـملت قـط بشذىٰ أسماء الله؟ لا يخيل إليّ هكذا! فاذهب وذق طعم الجنون حتى تجيد لعبة الحب باسم الحبيب.

واعلم أن ما تقرأه في دعاء الجوشن الكبير من أسماء لفظية تتجلىٰ في ألف مظهر هي اسم لذلك الاسم المنظور.. مثلها مثل لفظة «تـمر» المكونة من ثلاثة أحرف ولكـنك لن تـتذوق الحـلاوة إلّا بـمسماها. ومسمى جميع هذه الأسماء وهي أركان عالم الوجود يظهر هنا في هذا التجلي وهناك في تجل آخر:

---

١ ـ معناهما:

ـ «نحن سالكون إلى دار الحب جئنا من صحراء العدم، قطعنا كل هذا الطريق نطلب اقليم الوجود».

ـ «شاهدنا ريعان خطك في صحراء الوجود، جئناها طلباً لنبات اليبروح (ست الحسن)».

«وباسمائك التي ملأت أركان كل شيء»[1].

وما تقرأه من أسماء في الأسطر الأولىٰ من دعاء «كميل» الشريف هي أسماء تظهر في جميع موجودات عالم الوجود. ولكن اعلم انه ليس هنالك من موجود مُظهر لجميع الأسماء معاً. ولكنك إن تصفحت سجل الوجود لا تجد اسماً واحداً من هذه الأسماء غيب مظهره عن هذا السجل. يروى انه عز وجل يقول لو لم يكن بنو الإنسان خطائين لكنت خلقت موجودات يعصونني لأظهر اسمي «الغافر» بالغفران لهم.

وإشارة أخرىٰ أنوّه بها لك هي أنه لك أن تعرف أن جميع الأسماء تفنى في «أم الأسماء» وجميعها تعود لاسم الجلالة «الله» وذاته واحدة موحدة. من هنا يتوحد كل من اسمائه مع بقية الأسماء ولكن كان ظهوره وتجليه في ذلك الاسم بالتحديد. ففي كل جلال، جمال وفي كل جمال جلال مستتر.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«سبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته واشتدت نقمته لأعدائه في سعة رحمته»[2].

---

١ ـ من دعاء كميل.

٢ ـ انظر «فصوص الحكم».

«اسماء تتجلى في جميع الموجودات»

١ ـ (الرحمن):

الوجود هو رحمة الله الواسعة التي نالها كل موجود وِجد. إنه وهب كل من مخلوقاته الوجود ووهبها مستلزماته أيضاً، وكذلك الهداية إلى الكمال.

لما سأل فرعون النبي موسىٰ ﷺ عمن هو ربه، أجاب ﷺ:
﴿ربنا الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ﴾[١].

***

٢ ـ (العالِم):

لا تجدن أي موجود لا تتجلىٰ في خلقه آثار العلم. التفت إلى أن كل العلوم الإنسانية بما أُوجدت من اكتشافات واختراعات إنما هي

---

١ ـ سورة طه، الآية ٥٠.

كشف عن علوم تدبرت خلق العالم. أي أن اطلاع أي طبيب اخصائي على وضع جسم الإنسان هو في الحقيقة تعرّف على بناء اعضاء كلها تخضع في وظائفها للنظام والعلم، وهو علم خالقها وربها.

***

٣ ـ (القادر):

تتمتع كل من الموجودات بالقدرة، الجمادات بقدرة تحرك الالكترونات بسرعة (٣٠٠,٠٠٠) كيلومتر في الثانية؛ في النباتات قدرة اقتحام التربة المتصلبة بواسطة الجذور والبراعم ثم تواصل الارتقاء والنمو، في الأشجار العملاقة قدرة سحب الماء من أعماق الأرض وايصاله إلى مثل ارتفاع الثمار والأغصان واجتذاب المواد الضرورية من التربة واستخدامها في الإثمار. وهل يدبر هذه الأمور سوى قدرة الرب الحكيم الذي عرض صفته في بناء هذا النبات. فجميع قدرات الموجودات الحية والتي تبدي كل هذه التحولات في العالم ما هي إلّا قدرته:

«ولا حول ولا قوة إلّا بالله»

***

٤ ـ (العظيم):

لا تتصورن أن تجلي صفة حضرة العظيم ينحصر في عظمة

المجرات. فأنت في أي موجود تنظر، لا ترىٰ إلّا العظمة والبداعة والجلال! تراها في بناء جسم النملة، في الخلية، في وردة جميلة، في حشرة صغيرة، فكلها تريك عظمة الخالق وكبرياءه:

«وبعظمتك التي ملأت أركان كل شيء»[1].

***

٥ ـ (الجامع):

تعلم أن الجمادات تستمد وجودها من الذرات، والحيوانات تأخذ حياة أعضائها من الخلايا. فالمجاميع الخلوية تختلف كلها صنفياً عن بعض، فجسم الإنسان يتكون من خلاليا عضلية وعظمية وجلدية ودموية وشعرية وخلايا القلب والكبد والكليتين والمعدة وغيرها (على اختلاف أصنافها). وكل مجموعة منها تنشغل بأداء وظيفة فوضت إليها. والملفت أنها رغم انعدام الاتصالات بينها وعدم جلوسها إلى أية مائدة مفاوضات، ولكنها جميعاً تخدم بعضها وكلها تسدد خدماتها حفاظاً على حياة كائن حي. فكيف لها أن لا تترك مركزها قط أو تتجاوز حدود الآخرين طوال الحياة وتحافظ على انسجامها مع بعض، في تشكيلة العضو الواحد، على مر اللحظات؟ أليس الأمر يعود إلى كونها تسير بأمر حضرة «الجامع» الذي لم يأذن لها بالخروج عن إطار المجموعة؟

---

١ ـ من دعاء كميل.

٦ ـ (الواحد):

لا يتماثل أي موجودين في العالم تماماً من حيث الشكل والصفات والتجليات والوضع. فسكان الكرة الأرضية يبلغ عددهم بالفعل الستة مليارات نسمة، كلها من بني الانسان ولكننا لا نعثر على شخصين منهم يتماثلان من جميع النواحي، حتى وإن أحيا الله الأولين السابقين وجاء بالآخرين اللاحقين منهم فلا تجد مثيلاً لك، ليس فقط من جانب المظهر واللون والجلد والجمال، بل حتى في نمط الكلام. فأنت تجد الملايين من أبناء شعبك ينطقون بنفس اللغة ولكن لا يتماثل أسلوب ونغمة كلام أي منهم تماماً معك مما يجعلك تتعرف فوراً على صاحب الصوت متى ما سمعت صوتِ أحد من معارفك يتحدث في المذياع مثلاً.

كم شجرة سرو توجد في العالم؟ من المستحيل أن نجد شجرتين منها تتماثلان تماماً معاً من جميع النواحي. وهذا ما يذهب إليه العرفاء في أن تجلي الله لا يتكرر أبداً. وهل يحلّل ذلك إلّا بأن هذه الأحدية هي تجل لحضرة الواحد الأحد. وقد عرض وحدانيته في سوق الموجودات؟!

وهنالك صفات أخرىٰ تتجلى في جميع الموجودات نصرف النظر عن ذكرها بالتفصيل طلباً للإيجاز.

واعلم أن أفضل طريق لمعرفة أسماء الحق تعالىٰ وصفاته هو النظر في تلك الصفة وتجليها في مظاهر الوجود فهي الأكثر انسجاماً مع

مستوى إدراك الإنسان وإلّا فان استيعاب الذات الأزلية أمر متعذر على بني الإنسان. فهذا التجلي في المظاهر إنما كان أساساً بهدف تعرف الإنسان على ربه. كما مر بنا في حديث قدسي سبق لنا ذكره تنبهت من خلاله إلى وجود انسجام وتشابه حتمي بين الظاهر والمُظهر.

الأسماء الحسنى

مصدر الحسن في جميع التجليات الصغرى والكبرى

وجوب تشابه تجلي كل اسم مع ذلك الاسم أمر مفروغ منه. والعالم وهو من مظاهر اسماء الله لابد أن يكون خلقاً في منتهى الاتقان والحسن ومتجرداً عن النقص والإشكالية، لأن أسماء الله هي الأسماء الحسنى:

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[1].

يؤكد العلامة الطباطبائي في تفسيره العظيم «الميزان» أن التفكير والتأمل في خلق الأشياء وفي تناسب اجزاء كل منها مع بعض وتوحد هذه الأجزاء الذي يعتبر وجود كل منها ضروري لتحقيق كمال السعادة على وجه أتم و.... يبيّن أن كل ظاهرة تتمتع بحد ذاتها بكمال الحسن والجمال.

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ٧.

أنت تنظر إلى العالم بهاتين العينين. فاسأل عينيك: هل تتصوران أن من خلقكما في غاية الاتقان والحكمة والجمال يخلق بقية الأشياء ناقصة؟ سوف تجيب عيناك إننا نرى كل شيء ولكننا لم نر نفسينا حتى الآن. قل لهما: أمهلاني حتى آتيكما ببعض الآيات الالهية المتجلية في وجودكما:

«الآيات الالهية المتجلية في بناء العين»

(أولاً): انظرا أن الله خلقكما في منحدر من الوجه صيانة لكما من أضرار الصدمات، لعلمه بأنكما ألطف أجزاء الجسم. فجميع الناس يتعرضون مراراً في حياتهم لتلقي ضربات على الوجه بالسقوط أرضاً أو الارتطام، ولكنكما لم تواجها ضرراً إلى الآن لاستقراركما في منحدر الوجه بين عظام الجبهة والوجه التي تعتبر درعاً واقياً لكما.

(ثانياً): لانحدار عرق الرأس والجبهة نحو منحدركما في موسم الحر وتعرضكما للأضرار بفعل أملاح العرق جعل الله الحاجبين سدّين في أعلى ثغرتيكما، سدّين يمسكان العرق ويرسلانه نحو جانبي الوجه حفاظاً عليكما من التضرر.

(ثالثاً): جيّش فريقين من حرس الرموش المنتظمة على بوابتيكما لينفعاكما ويخدماكما ساعة اغبرار الجو أو هياج العواصف فتتكافل لمنع تلوث سطحيكما بالغبار والتراب دون أن يعيقا رؤيتكما أيضاً.

(رابعاً): لما كانت عدستيكما ليستا في متناول يد صاحبكما ليبادر

لتنظيفهما وصقلهما يومياً، جعل الجفنين تتحركان باستمرار ليؤديا هذه العملية بآلية مثل مسّاحة الزجاج الأمامي في السيارات فهما ينظفان ويصقلان عدستيكما على مر ساعات اليقظة حيث عملية الرؤية والنظر فاعلة متواصلة.

(خامساً): لما كان التلف نتيجة مؤكدة للاحتكاك، ولمنع اتلاف عدستي العينين الرقيقتين جراء حركة الجفنين المستمرة، خُلقت فيكما غدتان تعملان كنبعين مدرارين عملهما التطهير والترطيب لتحافظا على رطوبة وطراوة سطحيكما على الدوام.

(سادساً): لاحتواء المواد المترشحة لتطهيركما على الملح الفاعل في تعقيمكما ولكون تكدس هذه المواد في تجويفيكما يعيق رؤيتكما، جعل الله في زاوية جفنيكما السفليين قناتين ترسلان الماء الفائض المتراكم على سطحيكما نحو تجويف الأنف.

(سابعاً): تعلمان أن بؤبؤيكما يتكونان من تسع وريقات رقيقة لا يبلغ سمكها مجتمعة سمك ورقة الكتابة، وجداركما الباطني تتولىٰ رعايتهما حوالى (٣٣) مليون خلية حية.

(ثامناً): انتما ترسلان إلى الدماغ صورة شجرة كبيرة مثلاً بحجم ربما لا يبلغ أكبر من المليمتر الواحد، ولكننا نراها شجرة كبيرة بمثل حجمها. هذا ما لم نكشف سره بعد!

ايها العزيز! كان هذا كلام مع عينيك بما يناسب موضوع الكتاب وإلّا فتفصيلات تشريح عينيك موضوع يملأ مجلدات كاملة إن أُريد إيفاء حقه. دعني أسألك: الآن بم تجيب على استفسارات ربك:

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«وأقام من شواهد البينات على لطيف صنعه وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلمة له ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته»[2].

وأما الإمام الصادق عليه السلام فانه يقول ان كلمة «قاسموس» هي اسم «العالم» في اللغة اليونانية وتعني «الزينة» حيث كان الفلاسفة اليونانيون يسمونه هكذا. ولم تكن هذه التسمية إلّا لما رأوه فيه من تقدير ونظام. فلم يرضهم تسميته بالتقدير والنظام حتى سموه «الزينة» ليفهم الآخرون ان العالم وإلى جانب كل مظاهر الاستقامة والثبات المتجلية في خلقه فإنه في منتهى الجمال والحسن والروعة أيضاً.

انه لمن المدهش حقاً أن يقضي البعض حياتهم ينظرون إلى العالم فيرون كل شيء دون أن يلتفتوا إلى خالقهم وربهم من خلالها.

---

١ ـ سورة الملك، الآيتان ٣ و ٤.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٦٥.

«العرفان هو معرفة الأسماء»

رغم اندماج العلم والفن في وجود أي عالم وفنان واستتارهما في ذاتيهما، ولكن لا أحد يعرف العالم ولا الفنان دون العرض. فلحصول المعرفة لابد من تجلي الباطن.

ولما كان متعذر على الإنسان التوصل إلى مثل هذه المعرفة دون العرض فكيف يمكنه معرفة حضرة «الأحد» دون تجليه في المظاهر؟ وقد قرأت في الحديث القدسي قوله تعالى:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

إذاً، لا سبيل إلى معرفة حضرته سوى معرفة صفاته المتجلية في خلقه فمعرفة ذاته أمر متعذر. ولما كان أفضل بني الانسان وأكملهم يقول:

«ما عرفناك حق معرفتك» فهل لمن سواه أن يدعي أكثر من هذا تبجحاً؟!

فاجهد ايها العزيز! لتستوعب الأسماء. ولها جميعاً وجود عيني في

عالم الوجود.

فكل فيض يتنزل على موجودات عالم الممكنات على مرِّ اللحظات يتأتىٰ من صاحب النفوس، فذاته هي كنز الصفات الحسنىٰ. إجهد لتتعرف عليها كل على انفراد في دار الدنيا، عندها سوف تقف مبهوراً في هذا المعرض، ونفسك مفتونة والهة بتلك الذات الزاخرة بالجمال والجلال.

يؤكد عبد الرزاق الكاشاني ان كل اسم دليل صفة وكل صفة سبيل إلى معرفة وكل معرفة إلى ربوبية وكل ربوبية تتطلب عبودية، وأن اسماء الله التسعة والتسعين إنما تُظهر ألف اسم واسم من وراء حجاب الغيب إلى صحراء الظهور بحسب استيعاب فهم الإنسان وقابليته البشرية[1].

***

واعلمن أن الوجود المطلق الذي ينفي جميع التعينات هو ذات الحق تعالى، فكل تعين إسمياً أم صفاتياً ينمحي في مقام أحدية الوجود. فلا سبيل للتعين إلى ذاته التي لا تتقيد باسم أو شكل، وكل ما يتلبس بثوب التعين لا يبلغ ذلك المقام. من هنا تتوحد جميع الأسماء الحسنى مع ذاته. وهذا ما يعنيه قول الإمام علي عليه السلام:

---

١ ـ انظر «المقامات المعنوية»، ص ٥٩.

«كمال إخلاصه نفي الصفات عنه»[١].

ففي عالمنا هذا، الصفات تتكاثر تجلياتها لتقبلها التعين. فابنك مثلاً إن كان يجيد عشرة من الفنون ويعرض كل منها في معرض ما يسمونه رساماً في معرض لوحاته الفنية ونحاتاً في معرض منحوتاته وخطاطاً في معرض مخطوطاته و... ولكنه ليس بأكثر من شخص واحد ومن كل هذه المظاهر تتجلى نفس شخصيته: ﴿تعالى الله عما يصفون﴾.

كل صفة لا تظهر لولا وجود موصوفها، وكل وجود تجل من تجليات أصل الوجود. فأنت تشاهد في أرجاء عالم الطبيعة كلها مظاهر العلم والقدرة والجمال والرزق. وكل منها يحدثك عن وجود العالم والقادر والجميل والرزّاق. ولكن كلها تفنىٰ في ذات الأحد المتعالي، وهذا هو مفهوم الآية:

﴿كل يوم هو في شأن﴾[٢].

وإن كنت تذعن أن للبصر والسمع والفهم وجوداً وأنها ليست عدماً فإنك تحسبها دون شك مظهراً من مظاهر الوجود، وتجدها تجل من تجليات النفس إن كان نظرك موجهاً الى ملكوت هذه القوى، وتجل للجبروت إن كنت تعرفت على جبروتها، وإن كنت صاحب حظ في معرفة الحق فأنت ترى فيها تجليات ذات البصير والسميع والعليم كما أكدنا في موضوع «قانون العليّة».

---

١ ـ نهج البلاغة.

٢ ـ سورة الرحمن، الآية ٢٩.

وأنا إلى جانب طفل في يوم ما شغّلت المذياع فإذا بالمتحدث يقول: هنا لندن. هتف الطفل: ما أكذب هذا الجهاز، إننا لسنا في لندن.

المذيع كان صادقاً لأنه نطق بما قال وهو في محل البث والطفل هو الآخر كان صادقاً لأنه لم يكن قد ابتعد عن مدينته حتى لخطوة واحدة.

فالمتنكرون لهذا الكلام هم الآخرون يتنكرون له لأنهم لم يغادروا مواقعهم ولو لخطوة واحدة. فهل تفهم؟!

هذه الشجرة لم تظهر منذ اصطبغت بلون الوجود إلّا تجليات تلك الذات. فإنها أولاً تجل من تجليات الوجود. أَوَليس الوجود رحمة؟ أَوَ لا تحدث هذه الرحمة عن حضرة «الرحمن»؟ انفلاق براعمها ألا يظهر حضرة ﴿فالق الحب والنوى﴾[1]؟، واختراقها التربة المتصلبة حضرة «القادر»؟ ألا تعتبر مظهراً من مظاهر الحياة؟ وهذا الحي ألا يهمس في مسامعك معلناً عن وجود حضرة «المحيي»؟ وتعبّر بظل أوراقها عن وجود «اللطيف»؟ وبازهارها عن ذات «الجميل»؟ وباثمارها عن حضرة «الرزاق»؟ وبانعدام أي مثيل تام لها في وضع الجذع والأوراق والثمار عن حضرة «الأحد»؟ وانقسام ازهار هذه الشجرة إلى ذكرية وأنثوية ألا يشير حقاً إلى وجود حكيم دبّر هذا الالتقاء للإبقاء على أجيال النباتات والحيوانات؟

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٩٥.

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾[١].

فهذه الأزهار كانت توّاقة لوصال بعضها ولكنها لا تقوى على المضي إلى حبيبها، فأية يد حملت هودج عرس هذه الفاتنات، لتزين الأغصان في عام تال بجمال أبنائها وتحتوي موائدنا ثمارها؟

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[٢].

فظهور «المحيي» يستتر بعد برهة ليتجلىٰ بدلاً عنه حضرة «المميت». فهذا الموجود الجميل «الحي» يفي بما استعاره من أمانة الجمال والحياة إلى صاحبها. وربما تركها تلتهمها النار:

﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾[٣].

الآن أخبرني: وانت تقف في معرض مناظر الوجود هذا كم منظر تفحصت على هذا النحو إلى الآن؟ سوف تجد أننا نمر مرور الكرام على آلاف المناظر من تجليات الأسماء الآنفة ولم نلتفت قط إلى أركان عالم الوجود فيها، وكلها تجليات الصفات والأسماء.

١ـ سورة يس، الآية ٣٦.

٢ـ سورة الحجر، الآية ٢٢.

٣ـ سورة يس، الآية ٨٠.

«إشارات حول الأسماء»

(أولاً): إعلم أن بعض الأسماء تفتقد المسميات كما في الطائر الاسطوري «العنقاء» أو «سيمرغ» المتخذ رمزاً للعلياء في اللغة الفارسية و «جبل قاف». أما أسماء حضرة الباري تعالىٰ فانها جميعاً ذات مسمى ولكن لبعض الأسماء تجل هنا ولبعضها تجل هناك. على أية حال تكون تجليات اسمائه، سواء الجمالية منها أو الجلالية، على درجات أكبر بكثير من العظمة في الدار الآخرة.

(ثانياً): أنت لما تتعرف على الأسماء الالهية وتعود بنفسك إلى فطرتك تجد فيها ميلاً إليها ولعاً بها، لا سيما الأسماء الجمالية فتستحثك جواذبها بالطبع للتخلق بتلك الأسماء. فافهم أن معنى القرب من حضرة الباري تعالى هو هذا التخلق باسمائه.

(ثالثاً): إن تكرار كل اسم من الأسماء يتأتى منه انعكاس مسمىٰ ذلك الاسم في النفس الانسانية. وهذا الانعكاس يولد التغيير والنمو والتكامل وتنبه النفس. من هنا، يؤكد بعض العظام إلى أن ننظر في

أسماء الله فنرى ايها الأكثر جاذبية بالنسبة لنا لنتشبث بأذيالها، فإنها منسجمة لا محالة مع نفوسنا. وليكن ذلك بالطبع مع الالتفات الكامل إلى مفهوم ذلك الاسم ليكون ذلك انطلاقة التخلق بذلك الأسم.

(رابعاً): وانت تتطلع إلى كل ظاهرة، إن ركزت انتباهك إلى باطنها وملكوتها، فإنك لا ترىٰ داعياً للانزعاج من أي منها بل سوف تشغف حباً بكل التغييرات والتحولات والظواهر لأنك تعلم أن أفعال الحكيم لا تكون عبثاً أبداً.

(خامساً): إن السير والتجول في الأسماء والتخلق بها يرفع الانسان إلى حيث يصيره مظهراً من مظاهر الأسماء الإلهية. وهذا هو مقام المعصومين عليهم السلام حيث جاء عنهم:

«نحن أسماء الله»[١].

وبلوغ هذه المرتبة هي البشرى التي رزقها الله تعالى إلى بني الإنسان وكانت مدعاة وقوع الملائكة ساجدين له عندما: ﴿علّم آدم الأسماء كلها﴾[٢]. ولا يكون بلوغ هذه المرتبة إلّا عند فناء الشخص في الأسماء. وهذا ما سوف نعرض له في خاتمة البحث.

(سادساً): سلوك السالك يتطلب منه جناحين أحدهما جناح الأمل والرجاء والآخر جناح الخوف والرهبة. من هنا نقرأ في القرآن الكريم:

---

١ ـ أصول الكافي.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٣١.

﴿يدعوننا رغباً ورهباً﴾[١].

فلا حركة للسالك دون هذين الجناحين.. فبدونهما لا يحرز أية معرفة بالأسماء الجمالية، مثل: الكريم، الرحيم، الرؤوف، الغفور ولا بالأسماء الجلالية مثل: العظيم، الجبار، القهار، المضل وشديد العقاب.

أعود لأذكر بأن جميع الأسماء تفنى في وجود الحق تعالىٰ حيث تتحول الكثرة إلى وحدة.

فيا ايها العزيز! إن كنت لا توفق للنظر في أسماء الله خلال الطبيعة، أمعن فيم يحجبك عنها. فإن لم تعثر على ذاك الحجاب في نفسك عد إلى كتاب الكافي حيث يذكر حديثاً عن أحد المعصومين يؤكد فيه أن ما يحجب الخلق عن الخالق هو كثرة الذنوب.

ويعبر العرفاء عن الوجود المحض، دون الالتفات إلى الصفات بمصطلحات مثل غيب الهوية ومقام اللا تعين أو مقام «العماء» الممتنع عن الوصف وهو مقام اللا اسم واللا شكل. ونفس هذه الذات عندما تظهر في إحدى تجلياتها يكون لها اسم هو عين الذات ولكنها تتعين بصفات من صفات الجمال أو الجلال:

«إن الاسم باصطلاحهم ليس هو ذات المسمى باعتبارِ صفةٍ وجودية كالعليم والقدير أو سلبية كالقدوس»[٢].

«والذات مع صفة معينة باعتبار تجل من تجلياته يُسمى بالاسم فإن

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

٢ ـ انظر كتاب «المصطلحات» للعلامة القاساني.

الرحمن ذات لها الرحمة والقهار ذات لها القهر وهذه الأسماء الملفوظة هي اسماء الأسماء. ومن هنا يعلم أن المراد بأن الاسم عين المسمى ماهو»[1].

إنك إن تعرفت حقاً على تجليات الجمال لتجدن أنها جميعاً تؤجج في وجودك نيران الحب والوله.

---

١ ـ انظر شرح الفصوص للعلامة القيصري.

«الأسماء الالهية، ملكوت عالم الوجود»

لعالم المادة والمُلك، روح هي ملكوتها. والنظر في غيب العالم هو تقصٍ لملكوته. وقد وجه الله تعالىٰ في الآية: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[1]، مدحاً للملتفتين إلى ملكوت العالم، أي أنه سبحانه وتعالى يؤكد على أهمية مثل هذا النظر:

﴿أوَ لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض..﴾[2].

يستوحىٰ من هذه الآية أن لكل شيء ملكوتاً. فكان من النعم الالهية الموهوبة لخليل الله عليه السلام هو ما جاء في الآية التالية:

﴿كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾[3].

وهذا الملكوت هو نفس عالم الأسماء وهو تجلي أنوار الذات الالهية:

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

٣ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٥.

﴿سبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[١].

فالدافع الرئيسي لبعثة جميع الرسل هو تعرف الناس على غيب العالم وملكوته:

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾[٢].

وذلك العالم ـلتمتعه بدرجة أعلى من المراتب الوجودية ـ يكون اكثر قرباً لمنشأ عالم الوجود وأكبر حظاً من النور الالهي. إلّا أن انغماسنا في عالم المحسوسات يعيقنا، بالطبع، عن النظر إلى الملكوت:

قال رسول الله ﷺ:

«لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء»[٣].

فيا ايها العزيز! إن وفقت إلى النظر في عالم الملكوت ـفعلى قدر ادراكك لحقيقة تنزه الملكوت عن سمك عالم الملك وعنفه واتصاله بعالم النور تصبح نفسك أكبر ولعاً بالتقرب من حضرة الحبيب وأسرع تحرراً من ثقل المادة وانطلاقاً نحو اللطافة الملكوتية.

فمعرفة النفس ومعرفة العالم القرآنيتين تقومان على أساس ازدواجية نشأة الإنسان والعالم (المادي والمعنوي) أو قل عالم الخلق وعالم الأمر أو قل الملك والملكوت. فقيام المادة والظاهر إنما يكون

١ـ سورة يس، الآية ٨٣.

٢ـ سورة التكوير، الآية ٢٤.

٣ـ أنظر «مسند الرسول».

بقيمومة عالم الأمر وباطنه فلا قيام لعالم الظاهر، ولو للحظة واحدة، دون الباطن. فإمكانية النظر إلى عالم الظاهر هذا تفتتح دون شك الأبواب باستمرار لاهتداء أهل البصيرة إلى الباطن:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله تعالىٰ خلق الملك على مثال ملكوته وأسس ملكوته على مثال جبروته ليستدل بملكه على ملكوته وبملكوته على جبروته»[1].

فسلوك السالك انطلاقاً من الباطن ومضيه في نفس هذه المنازل وعودته في الختام إلى السماء يفسر في بعض الروايات وبحسب بعض الآيات بأنه عودة إلى عالم المعنى في المراتب العلوية. فالملكوت هي سماء المُلك، والجبروت سماء الملكوت. ولكن هنالك للأسف ما يعيق نظرنا من الملك إلى سماء الملكوت فيعتقل نظراتنا في عالم المادة:

إننا نقرأ في حديث المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

«فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برَهج ودخان وأصوات فقلت: ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب»[2].

فيا أيها العزيز! هذه الحالة ملازمة لك في حياتك، تُعجزك عن التعمق في النظر والالتفات إلى أنه لا ظهور لأية طبيعة ظاهرة دون

---

١ ـ انظر كتاب «الانسان الكامل» لعزيز النسفي، ص ٣٧٠.

٢ ـ مسند أحمد بن حنبل، ج ٢، ص ٣٥٣.

مُظهر غيبي، وكل ظاهرة هي بحد ذاتها معرِّفة ومبيّنة له. ولكن الغيب السرمدي جلي تماماً، ظـاهر للـعيان بـالنسبة لبـصيرة النـفس رغـم استتارها عن عيني رأسك.

فسبيلك إلى ملكوت العالم غير ممهد ولكن لك من الغيب في كل آن ولحظة نداء يدعوك إلى الاهتداء إلى الحبيب بالنظر في تجلياته.

«إشارات أخرىٰ حول الأسماء»

الإشارة الأولى هي أن تعلم ان كل اسماء الله لها وجود مجسد في عالم الوجود.. وكلها يظهر وجودها من خلال تجليها إلى الظاهر. لا تتصورن أن المقصود من الأسماء هو ألفاظها. فهذه الألفاظ كما ذكرنا ينحصر استخدامها للدلالة على تلك الأسماء الواقعية. فالمؤثر في الوجود ومدبر شؤونه هو مسمى هذه الأسماء وهو ذات حضرة الحق.

والإشارة الأخرىٰ هي ان تجليات تلك الأسماء تكثر في عالم الكثرة ولكنك لما تنظر إليها في ذات الباري تعالىٰ تجدها تتوحد مع تلك الذات أي أنك عند نظرك إلى الظاهر والباطن في الذات ترى «الظاهر» هو «الباطن» و «المحيي» هو «المميت» مع أنهما تجليان متعارضان.

والإشارة الثالثة هي أن الأسماء تنقسم من جهة إلى أسماء «رحمانية» واسماء «رحيمية»، والأسماء الرحمانية تتجلى في عموم الناس ولكل من الموجودات في ايجادها وخلقها حظ منها مثل

«الرحمن»، «الرزاق»، «العالم»، «القادر»، «الربّ» وغيرها.

والاسماء الرحيمية تمنح الموجود كمالاً. ولما كان الكمال أمراً لا يبلغه جميع الموجودات، كانت الاسماء الرحيمية بالتالي غير عامة وغير شاملة مثل: «الغافر»، «رفيع الدرجات»، «المنور». من هنا تتجلىٰ جميع الأسماء في التجليين «الرحماني» و «الرحيمي» وكلاهما يفنىٰ في الله أيضاً. فتتجه بذلك من الكثرة إلى الوحدة.

والقول بأن الله بدأ خلق العالم بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» معناه أن حضرة «الله» أوجد عالم الوجود من خلال تجلياته الرحمانية والرحيمية، فليس لأي موجود شيء في كتاب الخلق إلّا ما كسبه من تجلي هذين الإسمين حيث:

قال رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم مفتاح كل كتاب»[1].

كما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«الله مشتق من إله و أَلَه يقتضي مألوهاً والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الإسم والمعنى فقد أشرك وعبد الإثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد»[2].

من هنا فأنت عندما تتوجه إليه، حتى وإن كان في انسياق اسمه

---

١ ـ كنز العمال.

٢ ـ عن كتاب التوحيد للشيخ الصدوق (ره).

على لسانك، إلتفت إلى تلك الذات الكريمة عينها، فهذا الاسم الملفوظ لا يكون إلّا للدلالة على تلك الذات.

والأسماء قسمت على نحو آخر أيضاً، أي إلى اسماء «جمالية» و «جلالية». فالاسماء الجمالية كثيرة. فأغلبية اسماء الله جمالية ولكن الأسماء الجلالية محدودة:

﴿عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾[1].

فاسماء مثل: «الرحيم»، «الغفور»، «الودود»، «الحبيب»، «الرفيق»، المؤنس»، و.. كلها أسماء جمالية وأسماء مثل: «العظيم»، «شديد العقاب»، «القهار»، «ذو الانتقام»، «المُضِل» هي أسماء جلالية. ولما كان مردها جميعاً إلى «أم الأسماء» أي اسم الجلالة «الله» فإنها تعود إلى الذات الأحدية. وأعلم أن الجنة من المظاهر الجمالية وكل شيء فيها وجميع مظاهرها هي من تجليات اللطف والحسن والجمال وفيها ما فيها من لذة، وجهنم من مظاهر الاسماء الجلالية وكل ما فيه عقاب وزجر وانتقام.

ونبينا محمد ﷺ ـ فديته نفسي ـ هو تجلي اسم «الهادي»، و «إبليس» ـ لعنه الله ـ تجلي اسم «المُضل». فلا هداية تتم في العلم إلّا وكان منهلها نور محمد ﷺ ولا ضلالة إلّا وكان مصدرها ضلال الشيطان وكفرانه.

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

«مقاليد السماوات والأرض»

الآن وقد تنبهت لهذا الموضوع الوضاء، إعلم أن عالم الشهادة لو شغلك بهيمنته على حواسك فعرقل اختراقك جدار المادة الضخم لبلوغ عالم النور، لا يبقىٰ أمامك من طريق إلّا اللجوء إلى مفاتيح ـمدّك بها الله سبحانه وتعالىٰ عن طريق انبيائه ـ من شأنها أن تفتح الأبواب بوجهك. وهذه المفاتيح الثمينة هي اسماء تتولى في باطن نفس هذا العالم قيمومة كل موجود. فأنت إن تعمقت في النظر إلى أي موجود وأمعنت التفكير فيه تعثر على هذه المفاتيح الملكوتية التي تمكنك من الانطلاق إلى عالم النور.

سئل نبينا الكريم محمد ﷺ عن الآية: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾[1]، قال:

«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وله المُلك وله

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٦٣.

الحمد، يحيي ويُميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير».

يتضمن هذا الحديث النبوي الشريف لفيفاً من المقاليد والمفاتيح الذهبية، وهي أسماء توثر في كل نظام الخلق، لك أن تبدأ رحلتك بالنظر في دلالاتها، فإنها تأخذ بيدك إلى ما وراء الطبيعة والملكوت والجبروت وحضرة الله. وهذه الأسماء هي: «السبّوح» و «القدّوس» في «سبحان الله والحمد لله» و «الأحد» و «الواحد» في «لا إله إلّا الله» والقادر في «لا حول ولا قوة إلّا بالله» و «العلي» و «العظيم» و «الأول» و «الآخر» و «الظاهر» و «الباطن» و «المالك» و «المحيي» و «المميت» و «القدير» ويمكنك النظر في مظاهر جميعها في عالم الشهود.

يروى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله:

«إن الاحتجاب عن الخلق بكثرة ذنوبهم فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار»[١].

ويقول الإمام السجاد عليه السلام:

«وأنت لا تحتجب عن خلقك إلّا ان تحجبهم الأعمال السيئة»[٢].

---

١ ـ توحيد الشيخ الصدوق (ه).

٢ ـ عن مفاتيح الفلاح للشيخ البهائي.

«أبعاد الذكر»

ما نصف به الله سبحانه وتعالىٰ يأتي فـي إطـار الجَـلَوات الأربـع التالية:

١ ـ التسبيح:

التسبيح هو التنزيه أي سلب صـفات العـدم والنـقص عـن الذات الربوبية لحضرة الحق، وهو ذكر يشاركك فيه جميع الموجودات:

﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾[١].

وقد ذكر هذا التسبيح في ست سورة من سور القرآن[٢]. البـعض يسمي هذا التسبيح «التسبيح التكـويني» أي أن جـميع المـوجودات وبالنظر لاتصاف خلقها بالكمال وتجرده عن أي نقص صارت تسبح ربها وخالقها كل حسب لغتها. فهو المنزَّه من كل عيب ونقص:

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١.

٢ ـ وهي السور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن والأعلى.

﴿ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].

عندما يملي الإنسان النظر إلى عالم الوجود بمثل هذه الرؤية، كل شيء يعرض له في الحقيقة عظمة الحق وجلاله بلغته الخاصة. إنه تسبيح يدركه كل انسان موحد ذي عقل وتفكير. ولكن ما يقصده القرآن هو تسبيح من نوع آخر، تسبيح ينبئنا الله عز وجل بأنا لا ندركه.

﴿إن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[2].

وهذا الشاعر مولوي لا يعتبر ما ذكر في القرآن عن حياة الجمادات، وربما تكلمها، معجزة بل كشفاً عن حقيقة تستتر عن مشاعرنا عادة:

چون عصاى موسى اينجا مار شد
عقل را از ساكنان اخبار شد
پاره خاک تو را چون زنده ساخت
خاكها را جملگى بايد شناخت[3]

---

١ ـ سورة الملك، الآيتان ٣ و ٤.

٢ ـ سورة الإسراء، الآية ٤٤.

٣ ـ معناهما:

ـ «لما صارت عصا موسى ثعباناً، كان للعقل منها اخبار وأنباء»،

←

أما الشاعر سعدي ففي كتابه «كلستان» المتضمن روضة أزهار رائعة يعرض هذه الحكاية:

«أذكر ذات ليلة وأنا برفقة قافلة ما، نمنا وقت السحر قرب غابة يصحبنا ولهان لم يهدأ لحظة. ولما انفلق الصباح سألته: أي حال هذه؟!

قال: رأيت البلابل ضجت بالأنين على الشجرة، وهكذا الحجليات على الجبل والضفادع في الماء والبهائم في الغابة، أبيت لنفسي السكون والجميع مسبحون».

***

ولنتوثق مما ذكرته لك استمع إلى حكاية أخرى:

«يروى في أحوال الملا محمد الكاشاني ـ وهو استاذ مجموعة من عظام الشخصيات مثل النجفي القوجاني ورحيم الاصفهاني وكثيرين غيرهما ـ أنه كان يقيم في المدرسة. كان له في أواسط الليل صلاة يؤديها بدرجة من اللوعة يشعر بارتعاده خلالها الواقف خارج الغرفة. ذات يوم سأله أحد طلاب المدرسة: سيدي! هذا الشيخ يقول: نهضت من النوم ليلة أمس في وقت السحر فوجدت صدى عبارة «سبوح قدوس» تتردد من الأبواب والجدران ولما تقدمت أكثر رأيت الملا في

← ـ «ولما اوجدك من تراب وصرت مخلوقاً حياً، فلابد من معرفة أنواع الأتربة جميعاً».

باحة الدار ساجداً يردد هذه العبارة.

رد عليه الملا محمد الكاشاني: ترنُم الأبواب والجدران بذكري أمر لا يهم. المهم هو كيف كُشف عن هذا السر لهذا الشاب»»[١].

فيا أيها العزيز! لا تتنكر لهـذه المنازل، فالجنين فـي رحم أمـه لو كان بـالإمكان إطلاعه علـى أمور هذا العالم لكان يتنكـر لها جميعاً. فكيـف لنـا وبواطـننا تـفتقـد الأعـين والآذان أن تـطلع عـلى تـلك الأجـواء؟

واعلم ايها العزيز أننا، لا نحن ولا الموجودات الأخرىٰ، لا نؤدي حق تلك الذات المقدسة بما نأتيه من تسبيح، فالمسبح يؤدي تسبيحه على قدر فهمه واستيعابه وهو الذي يعلم:

﴿سبحان الله عما يصفون﴾[٢].

و ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[٣].

على أية حال، إحاطتك بان ذلك الكـنز المـخفي وصـاحب تـلك الذات الكريمة منزه من كل عيب ونقص وإشكال هو تسبيح بحد ذاته. فأنت، إذاً، تكون بها من المسبحين.

***

١ ـ انظر كتاب «تاريخ الحكماء والعرفاء بعد صدر المتألهين».

٢ ـ سورة الصافات، الآية ١٥٩.

٣ ـ سورة الصافات، الآية ١٨٠.

٢ ـ الحمد:

الحمد هو الإطراء على المحاسن والكمالات. هنالك كان الاتـجاه التنزيه من النقائص وهنا حمد المحامد. فلتلك الذات الكريمة جـميع المحامد فيما يفوق حد الكمال منها، والمحامد في ذاته أصل ومـنبع وفي مخلوقاته لا تتجاوز كونها قبساً وشعاعاً من ذلك المصدر.

فعلم أي عالم هو قبس من علمه ورأفة كل رؤوف تجل رحمانيته وجمال كل جميل شعاع من جماله.

ولما كان حمده نتاج الالتفات إلى آثاره وأفعاله ومخلوقاته، فإنك فيم تنظر بعين التوحيد ينساب على لسانك حمده، ولسوف تـرى أن التحريات العلمية كلما ازدادت وكشفت عن أسرار وعجائب، استترت ما وراء الحجب، دفعتك للإكثار من الحمد. من هنا، قال تعالىٰ:

﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾[1].

ولما صار في علمك أن أي مخلوق نال حظاً من الحسن والكمال والجمال إنما هي من نعم ربه، ينبغي لك أن تـفهم أن الحـمد كـله لله وحده، سواء أدرك الحامد ذلك أم لم يدرك، فالممكنات أتت من العدم وسوف تنتهي مسيرتها بالتحاقها لاحقاً بالعدم. وكل صفة وجدت على نحو ما، كانت من مُوجِد الوجود:

---

١ ـ سورة النمل، الآية ٩٣.

﴿هو الله لا إله إلّا هو له الحمد في الأولى والآخرة﴾[1].

ولما كان هو علة العلل، فإن اطراءك على أي معلول هو حمد واقعي لتلك الذات.

والفطرة الانسانية جُبلت على حب المحمود فلا حب ولا وَلَه إلّا لصفات الحق وبها. دعني اسمعك كلاماً من الشيخ الأكبر ابن عربي.

«ما أحب أحد غير خالقه ولكن احتجب عنه تحت نقاب زينب وسعاد وهند وليلى والدرهم والدينار والمال والجاه وكل مافي العالم. فإن الحب أحد سببه الجمال وهو له تعالى لأن الجمال محبوب لذاته، والله جميل يحب الجمال، وسببه الآخر الإحسان وما تمّ إحسان إلّا من الله ولا محسن إلّا الله فان احببت الجمال فما أحببت إلّا الله لأنه الجميل، وإن أحببت الإحسان فما أحببت إلّا الله لأنه المحسن. فعلى كل وجه ما متعلق المحبة إلّا الله وإلى ذلك أشار ابن الفارض حيث قال:

وكل مليح حسنه من جمال   مُعارٍ له بل حُسن كل مليح[2]

***

والامام الخميني ﷺ يستند في تفسير سورة الحمد إلى هذه النظرية باعتبارها إحدى مفاهيم الآية الشريفة: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيؤكد

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٧٠.

٢ ـ الفتوحات المكية.

أن الحمد يعود إلى رب الشيء دون غيره فهو الذي تولى خلقه وربوبيته، وكل صفة تمتدح في العالم هي في الحقيقة رشح من بحر أوصافه الجميلة، سواء أدرك الواصف ذلك أم لا؟

والآن انظر كم هو جميل هذا العالم في عين العارف! وأنّىٰ له أن يشعر بلوعة الفراق؟! إنه لا يرى أي فاتن إلّا باعتباره تجلياً لصفات ربه ولا يردد مدحاً إلّا له.

فديت نفسي لبصيرة وسعها أن تكتسح الماديات فراحت تنظر في الوجود المطلق. فما أسمىٰ هذه الرؤية!

ففي دعاء عرفة نقرأ عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام:

«إلهي ترددي في الآثار يوجب بُعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظهر لك. متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً».

***

٣ ـ التهليل:

التهليل هو القول والايمان الراسخ بالمفهوم الفذ والسامي للعبارة «لا إله إلّا الله» وهو ما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قال القائلون قبلي

مثل لا إله إلّا الله» ففي هذه العبارة الشريفة تكمن أسرار لعلى عظمة بليغة:

أولها أن هذه العبارة لا تتضمن حتى نقطة واحدة وقد يكون ذلك للدلالة على تجرد ذات الباري تعالىٰ.

وثانيها: أن حروف العبارة كلها حروف قائمة ربما كان للدلالة على قيام حضرة الحق على كل خلقه.

وثالثها: أن حروفها لا تتعدى الثلاثة وهي: «الالف» و «اللام» و «الهاء». وهذا بحد ذاته اعجاز ربما دل على مضمون أنواع التوحيد الثلاثة «الأفعال والصفات والذات». وكونها حروف اسم «إله»، وربما كان لنفي التثليث والدلالة على فناء ثلاثتها في وحدة الحق. فإن كنت غير مذعن لهذا الإعجاز كوّن جملة واحدة بمضمون رائع من حروف ثلاثة.

ورابعها: أن هذه العبارة الشريفة لا تحتوي أياً من حروف الشفاه فلك أن تردد ذكر «لا إله إلّا الله». باستمرار دون أن يلتفت إلى ذلك أقرب شخص منك.

وأما براعة مضمون العبارة فإنها في تكونها من عبارة جحد وعبارة إثبات. فلا إثبات دون جحد وقد تكون إشارة إلى أن طريق السلوك يبدأ أولاً بالتزكية.

والشاعر الايراني الحكيم سنائي يمثل التهليل الواقعي بفك الحوت فإنه عندما يكون مفتوحاً يبتلع كل ما سواه، أي أن تُتخذ كلمة «لا» باعتبارها كاسحة فتعقد عزيمة الجد وتشمر عن ساعد الهمة لاكتساح

القلب وتجريده عن كل ما تعلق به والتوجه بوجودك كله إلى حضرة الحق. وأعلم أن نفسك لا تتعلق أبداً تعلقاً حقيقياً إلّا بالله ولا تهدأ إلّا في ديار قربه الحصين ولكن التعلقات الآنية في عالم الطبيعة تحول الأنظار أحياناً من الخالق إلى المخلوق. إفهم أن التذكّر هو بمعنى إزالة ما علق على وجه الذكر من غبار النسيان وما يقصد به من ذكر الله هو إزالة الغبار عن وجه القلب وإلّا فليس هنالك من قلب غاب عنه اسم «الله»:

﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[١].

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾[٢].

ولما كانت العلة القريبة لايجاد النفس الإنسانية هي ذات الحق تعالى، وتعلقات الانسان بعالم الناسوت تولدت كلها بعد هبوطه، من هنا فإنه مع صقل غبار تعلقاته (اللاصق) عن صفحة نفسه يتجلىٰ له جمال الحق تعالىٰ في عالم الشهود. فهل يملك أي مفكر نزيه الفكر رداً على ما تتضمنه الآيات التالية من أسئلة إلّا الإذعان بوحدانية ذات موجد الوجود؟!

ـ ﴿أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله بل هم قوم

١ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٥.

٢ ـ سورة لقمان، الآية ٢٥.

يعدلون﴾[١].

ـ ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[٢].

ـ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته، أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون﴾[٣].

ـ ﴿أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله، قُل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٤].

تجد في هذه الآيات الأربع من سورة النمل المباركة اسئلة لا يمكن الرد عليها إلّا بالتصديق والإذعان بوجود حضرة الباري تعالى حيث لا يملك أي إنسان متعمق التفكير إزاءها إلّا الخشوع والاقرار بوحدانية حضرة الحق.

ومثل هذه الاسئلة مطروحة فيما يخص خلق السماوات والأرض بكل عظمتها وأسرارها، قانون التبخير وتحدده بالماء النقي العذب من البحار، حياة النباتات وتنوعها ودور التنوع في تأمين رزق غذاء الحيوانات والإنسان ـ بينما لم تطلعنا ما اخترقت أجواء الفضاء من آلات صنعتها يد الإنسان على وجود حتى خلية حية واحدة في

---

١ ـ سورة النمل، الآية ٦٠.

٢ ـ سورة النمل، الآية ٦١.

٣ ـ سورة النمل، الآية ٦٣.

٤ ـ سورة النمل، الآية ٦٤.

السماء ـ ايجاد الينابيع والمستودعات الجوفية للمياه، وانبات مئات الأنواع من البقول والأشجار، وتزيين الأرض بمئات الأصناف من الأزهار والرياحين مما يولد في نفس الإنسان البهجة والسرور عند النظر فيها إعلاء هامة الجبال لإحداث مخازن لعشرات انواع المعادن وصيانة الأرض إزاء جاذبية الشمس والقمر، خلق الشمس المولدة للطاقة والضوء لتأمين الإنارة أثناء النهار، هبوب الرياح بشرى ودفعاً للغيوم، توفير الزاد والرزق لستة مليارات نسمة من بني الإنسان إضافة إلى مليارات من الحيوانات دون أن يتمكن أي شخص إلى الآن أن يجيب على أي منها إلّا بإبداء العبودية والتسليم إزاء حضرة الخالق العظيم.

والسؤال الآخر الذي يعجز الانسان عن الردّ عليه هو في خلقه هو بالتحديد:

ـ ﴿أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾[1].

ـ ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾[2].

فالانبثاق من العدم أمر لا ينكره أحد. فأين كنت يا ترىٰ قبل سنة من ميلادك؟ حتى أبوك وكذلك أمك لا يعلمان. وأبوك قد لا يقدر على علاج أبسط ألم يعتري عينك. هذه العين وبهذا البناء الدقيق والعظمة البليغة، من وهبها لك؟ وهكذا بقية أعضاء جسمك؟ هل تحريت حتى

---

١ ـ سورة مريم، الآية ٦٧.

٢ ـ سورة مريم، الآية ٩.

الآن وجود خالقك الحكيم العليم بمتابعة هذه الأفكار؟ وماذا بعد ذلك، أين نتوجه بعد ذلك؟ إنه الرحيل المسلم به:

﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾[1].

فأنت ما دمت عرفت الخالق تكون رحلتك لمعرفة المُعيد أسهل من رحلتك الأولىٰ.

٤ ـ التوحيد:

لما كان موضوع التهليل كله توحيد، وجل المعارف تندرج في هذا الموضوع يلزمنا أن نتحدث أكثر في هذا المضمار. التوحيد هو لمُّ الشمل وايجاد الوحدة. والواحد لا يوحِّده أحد بل يمكن النظر إلى الكثرة بعين الوحدة. فأنت إن نسبت أشعة الشمس إلى البيت والشارع والحديقة والصحراء تجدها كثيرة ولكنك عندما تذعن بأنها جميعاً ضوء لأشعة تشع من مصدر واحد هي الشمس تصيرها من الكثرة إلى الوحدة. وطريق المعرفة هو هذا بالتحديد. أي أن تعرف أن وجود الممكنات لا يكون إلّا بقيام واجب الوجود، تعالى شأنه، وليس لأي من الممكنات وجود ذاتي مستقل.

من هنا فإنك بمشاهدة كل معلول تنظر إلى علته. عندها تتوصل من الكثرة إلى الوحدة، وتفهم معنى التوحيد فهماً حقيقياً.

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

«أعتى الظلم»

تخديش يد شخص ما، هو ظلم، وبتر عضو من شخص ما، ظلم أكبر، والأعظم منهما إراقة دم إجحافاً. فيا ويلتاه على من أراق دم جماعة ظلماً! فهل تعلم ظلماً أعظم من هذا؟ الظلم والجور الأعظم هو النظر إلى العالم وتجاهل صاحبه! رؤية الظاهر وإهمال الباطن.

﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[1].

من هنا قال عز من قائل:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2].

***

والشرك نوعان:

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ١٣.

٢ ـ سورة النساء، الآية ٤٨.

١ ـ (شرك جلي): وهو عدم الايمان بخالق عالم الوجود أو إسهام عامل آخر في خلق العالم وهي هفوة قلما تحدث.

٢ ـ (شرك خفي): وهو الذي ينشر للأسف شراك تدنسه على رأس أكثرية الناس وحتى المؤمنين منهم. ومن مظاهره توقع إزالة الموانع والعراقيل ومنح الأرزاق وشفاء المرضى وحل المشاكل من غير الله. وهكذا الرياء والتظاهر بالعظمة هي من حالات الشرك الخفي الذي يتعذر حتى تشخيصه إلّا على أصحاب الرأي السديد.

فالإنسان يلزمه نور باطني كنور نفس علي بن أبي طالب عليه السلام، أسعفه لما جلس منتصراً على صدر غريمه وهو من أبطال زمانه فبصق العدو في وجهه الشريف. فترك صاحب النفس المنورة غريمه البطل غير آبهٍ بالغلبة لأنه شعر بنيران الغضب تلهب قلبه، وأن قتل أنموذج الكفر (بهذه الحال) يكون بقوة دافع نصفها الحق ونصفها الآخر هو النفس. فما عاد إليه إلّا بعد إنطفاء نار غضبه. عاد لينتصر للحق كأنه كان يردد قول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل»[1].

وأيضاً يروىٰ عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله قوله لابن مسعود:

«يا ابن مسعود! إياك أن تشرك بالله طرفة عين وإن نُشرتَ بالمنشار أو قطعت أو صلبت أو أُحرقت بالنار».

فديت نفسي لذاك الغلام الحبشي الذي ذاق قلبه طعم حب الحق

---

١ ـ معاني الأخبار.

فتجشم معاناة العطش وحرقة الشمس وعذاب السوط ولم تنبس شفتاه بما يسيء إلى «الأحد». كان يخفي حبه في الوهلة الأولى من خشية مولاه، ولكنه لما تأجج حب مولاه الحقيقي في قلبه، تاب عن توباته الظاهرية لمستعبده الإنسي.

ولتدرك إلى أية درجة وبأي اسلوب قد يتعشعش الشرك مستتراً، إعلم أن في كل خطيئة يكمن شرك مستتر. فالإنسان عندما يعلم أن هذه المبادرة حرمها الله عليه ولكن نفسه الأمارة تحثه لأدائها يكون قد أدار ظهره لأمر الله، والتفت لهوى نفسه جعل لربه شريكاً، أمره أكثر نفوذاً في نفسه من أمر الحق تعالىٰ:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[1].

***

إلهي! نرفع إليك أيدينا نطلب غفرانك فكلنا معاتبون ملومون لولا عفوك عن هفواتنا:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«من أطاع رجلاً في معصيةٍ فقد عبده»[2].

وعنه أيضاً:

«ليس العبادة هي السجود ولا الركوع إنما هي طاعة الرجال.. من

---

١ ـ سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٢ ـ الكافي، باب الشرك.

أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده»[١].

والأهم من كل هذه الإشارات ما يستوحىٰ من الحديث التالي من شدة ضيق طريق التوحيد ووعورته، حيث يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«من أصغىٰ إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[٢].

ألا ترىٰ إلى أي أقاصي بعيدة وحساسة تتسلل أحابيل الشرك الخفي، فلا أمان لنا من هذه الهفوات إلّا باللوذ بالله تعالى نفسه.

١ـ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٩٤.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٦٦.

«مراتب الايمان بوحدانية رب الأرباب»

أول مراتب التوحيد هو ايمان العوام بوحدانية الله وهو ايمان تقليدي.

وثاني مراتبه هو الايمان العلمي القائم على البرهان والمنطق والإدراك والمعرفة والدلائل الآفاقية والأنفسية، وهي مرتبة أعلى شأناً ولها آثار على نطاق أوسع.

أما أسمى مراحل التوحيد فإنه مقام شهوده الذي يتأتى للعباد بالتزكية والصوم والصلاة والإبكار في الاستيقاظ من النوم والذكر وصقل النفوس. أي عندما يرى السالك الآية التالية بعين قلبه:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[1].

---

١ ـ سورة الحديد، الآية ٣.

«أنواع التوحيد لدى السالكين

من وجهة نظر صاحب كتاب «تمهيد القواعد»[١]

يرى الفيلسوف «حكيم» أن هؤلاء العظام والأعلام يبدون ما بـهم من شهود قلبي وبصيرة نفسية بما ظهرت عندهم في مقامات السلوك من حالات لا يعرفها إلّا السالكون أنفسهم.

ففي حالة ما، يرى العارف الوحدة، فيقول:

«ليس في الدار غيره ديّار».

ويرى أحياناً الكثرة، فيقول:

اين همه عكس مى‌و نقش مخالف كه نـمود

يک فروغ رخ ساقيست كه در جام افتاد[٢].

---

١ ـ انظر ص ٤٢٤ من الكتاب.

٢ ـ معناه:

←

وأحياناً يرى الكثرة في الوحدة، فيقول:

هرچه از هست جلال آيد و از وصف جمال

همه در روى نكوى تو مصور بينم[١]

وقد روي عن أهل بيت رسول الله أيضاً القول:

«لنا حالات مع الله».

← ـ «كل هذه الصور للشراب والمشاهد المختلفة، ما هي إلّا ضياء أنوار وجه الساقي انعكست في الكأس».

١ ـ معناه:

ـ «كل ما تأتي من وجود الجلال ومن وصف الجمال، أراها كلها تجليات وجهك الجميل».

«التوحيد من وجهة نظر المحقق الطوسي»[1]

يرى المحقق الطوسي أن التوحيد نمطان «توحيد الله اذعاناً بالقول» و «توحيد الله إجماعاً لمظاهر تجليه»، وأن التوحيد بمفهومه الأول هو شرط صدق الايمان وهو انطلاقة المعرفة، ودلالته الاذعان بوحدانية الله تعالى والقول ﴿إنما الله إله واحد﴾.. والتوحيد بمفهومه الثاني هو كمال المعرفة ويحصل عند الموحد بعد توصله إلى اليقين بأن كل ما في الوجود هو وجود الباري تعالى ومن فيضه هو مما يقطع نظره عن الكثرة فيراها جميعاً ـ بعين بصيرته وبصره أيضاً ـ واحدة أي أنه يوحدها. وهكذا يجتاز في سريرته مرتبة «وحده لا شريك له في الالهية» ليبلغ مرتبة يؤمن فيها بانه «وحده لا شريك له في الوجود». وفي هذه المرتبة يصبح كل «ما سوى الله» حجاباً له فيعتبر النظر إلى «غير الله» شركاً مطلقاً ويقول لسان حاله: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[2].

---

١ ـ انظر: اوصاف الأشراف.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٩.

«حصن الحق المنيع»

ربما سمعت أنه مع وصول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى مدينة نيشابور في طريقه إلى طوس تجمهر أهل تلك الديار لاستقباله والطموح يشدهم لسماع شيء من كلام الإمام عليه السلام. فلما رأى عليه السلام أرضية حصول المعرفة مؤاتية أخرج رأسه الشريف من الهودج وأمرهم بكتابة ما سيحدثهم به. فتأهب ألف كاتب لكتابة كلامه الثمين فأدلى لهم بحديث سمي فيما بعد «سلسلة الذهب»: فانبأهم أن جده رسول الله روى أن الله سبحانه وتعالىٰ قال:

«كلمة لا إله إلّا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

فيا ايها العزيز! طريق السلوك تمر عموماً من نفس هذا الحصن وفيها ساحتان:

ساحة الجحد وساحة الاثبات. وقد اجتمع أهل السلوك جميعهم على القول بأن أثر أي من الأذكار لا يبلغ أبداً أثر ذكر «لا إله إلّا الله». وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان لكل عمل خير في يوم القيامة مقاس

إلّا الشهادة بأن «لا إله إلّا الله» فانها لا توضع في ميزان، فإن وضعت في ميزان لا تضاهيها السماوات السبع والأرضين.

فأي جحد وأي إثبات؟

جحد العبودية لمن سوى الله والتنكر لها واثبات عبودية الله وحده، جحد الباطل واثبات الحق. نفي «أنوية» الشخص وإثبات عبوديته لله. ولكن اجتياز هذه المحطة الأخيرة لعليٰ صعوبة تامة ولكـن لا بأس فالغاية هي بلوغ جنة اللقاء. فإن كنت راغباً في تـعميق فـهمك لهـذا المفهوم استمع إلى مضمون كلام من رسالة «نقد النصوص» حيث نقرأ فيها بأن التوحيد الالهي هو ما اتصف به من وحدانية وفردانية، مـنذ الازل، اتصافاً ذاتياً وليس توحيداً مكتسباً، وسوف يكون هكـذا إلى الأبد، حيث ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾[1].. لم يقل «يُهلك» ليتضح ان وجود كل الاشياء يَفنى تلقائياً في وجوده. وإنما تفويض شهود هـذه الحالة إلى المستقبل كان مختصاً بأصحاب الرؤية المحجوبة، وإلّا فان أولي البصائر المنورة وأصحاب الشهود الذين نجوا من مضيق الزمان والمكان فقد فازوا بهذه البشرى مسبقاً. فعزة فردانيته وقهر وحدانيته لم تدع مجالاً لغيره في العالم. وهذا هو حق التوحيد. وهذا التـوحيد منزه من كل وصمة ونقصان[2].

ولك أن تهتدي إلى طريقك نحو هذه المنزلة بالتفكير في الحديث

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٨٨.

٢ ـ انظر: «نقد النصوص»، ص ٧٩ و ٨٠.

الشريف التالي:

«إن الله تبارك وتعالى كان ولا شيء غيره، نوراً لا ظلام فيه وصادقاً لا كذب فيه، عالماً لا جهل فيه، وحياً لا موت فيه. كذلك هو اليوم وكذلك لا يزال أبداً»[١].

أمعن التفكير في عبارة «كان ولا شيء غيره.. وكذلك هو اليوم»، فما سواه من موجودات ما هي إلّا تجليات اسمائه. وهذا المعنى يوافق بالضبط ما نستقيه من الآية ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه»، فلا توحيد يرتقي إلى هذا التوحيد.

يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ:

«رأيت الخضر ﷺ في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمني شيئاً أنتصر به على الأعداء. فقال: قل «يا هو يا من لا هو إلّا هو» فلما أصبحت قصصتها على رسول الله ﷺ، فقال لي: يا علي علمت الإسم الأعظم...»[٢].

لذا يحدد عباد الله المخلصون اسم «هو» على أنه الاسم الأعظم ويعلمونه الآخرين للاهتداء إلى معرفة الأسماء القلبية واللفظية.

فنفس هذا الذكر الشريف يتضمن كما تلاحظ جحد ما سوى الله.

---

١ ـ ميزان الحكمة، ج ٢٠، ص ٢٠٠.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٣، ص ٢٢٢ باب «التوحيد ونفي الشريك وكذلك كتاب التوحيد» للشيخ الصدوق، ص ٨٩، باب تفسير قول «هو الله أحد».

فليس للماهيات وجود إلّا وجودها المقيد المكتسب. فتدبر!

فأشعة الشمس تحدثنا بلغة الصمت، وعلى مر اللحظات، عن فقرها وبأنها لا تملك ما تعرضه إلّا ما اكتسبته من الشمس، فياليت بقية الماهيات أيضاً تظهر فقرها بمثل هذا الوضوح، فتكف بني الإنسان ورطة التيه في دار الخديعة.

يفسر البعض «هو» بحسب الحديث الآنف باعتباره الاسم الأعظم و «هو» ضمير للغائب. فكيف خصص ضمير الغائب لتلك الذات القيومة وهو «على كل شيء شهيد» وله شهود وله شهود قيومي على كل شيء؟! يرى الباحثون أن اسم «هو» فوق اسم الجلالة «الله» فإنه اسم الذات ولا سبيل لأحد إليه ولا يرقى حتى الطير إلى مثل سمو جلاله وجماله. فلا اسم هنالك ولا شكل، لا مفهوم ولا تعريف، لا ذروة القرب العرفاني ولا تفحص ولا تحر. والفكر الحكيم يقضي أن تكون هذه المرتبة هي التي قال عنها:

﴿يحذركم الله نفسه﴾[1].

واعلم أن النفس الإنسانية عطشى لذلك المشرب النقي الشفاف وإن طريقها إليه مسدود أبدياً. من هنا ينطلق هذا الاسم من صميم النفس ومع الأنفاس، وهي أساس الحياة الإنسانية. فبقية الأسماء يتم تلفظها عن طريق أوتار الحنجرة وبمساعدة سقف الفهم، عضلة اللسان، والاسنان والشفه بينما الجسم واعضاؤه لا دور لها في تلفظ اسم «هو»

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٢٨.

لأنه ينطلق من أعماق النفس وهي مرتبة يطلق عليها في الأدب العرفاني «مقام العنقاء» فلم ير العنقاء أو يهتد لموقع سكناها أحد حتىالآن.

الواله يعتزل المدينة ويهيم في البيداء كما فعل مجنون ليلى فلا يجد في أحضان الطبيعة سميراً يودعه أسراره، كظبي الصحراء لأنه هو الآخر يجنح إلى الانفراد والوحدة، فاراً من شر الطامعين من أكلة اللحوم، متوجساً الخيفة من أناس متوحشين. السالك لا يخاف النفس ولا يخاف الشيطان فقط بل يهاب المتوحشين من الناس الهاربين من الرحمن المتشبثين بالشيطان. نعم والله لقد آنسوا بظبي الصحراء خلاصاً من الوحدة وارتضوا الغربة أملاً في نيل نصيب من القرب الإلهي. إنها رحلة يتجرع فيها معاناة اللا أنيس وفراق الأصدقاء، تؤمل نفسك فيها بتمنيات الخضر الميمون ﷺ وبقبس من كلام عارف فتخلص إلى ان ما تطمح إليه في أعماق نفسك وتتمناه، لا سبيل لك إليه.. ولكن بوسعك أن تهتدي إلى سر علة العلل بالنظر في المعلول.

وهذا السر هو ما ألمحنا إليه في الصفحات السابقة من خلال بيت شعر للشاعر حافظ:

در كار گلاب و گل حكم أزلي اين بود

كاين شاهد بازارى آن پرده نشين باشد

فقلنا أن ماء الورد الذي زخرت به كل الأسواق هو تجل لصفات

الورد المحتجب عن الأنظار. فانظر ماذا يقول الشاعر مولوي في هذا السياق:

چونكه گل رفت و گلستان شد خراب

بوى گل را از كه جوييم از گلاب[1]

---

١ ـ معناه:

ـ «لما ذهب عنا الورد فنيت رياضها، فمن أين نستشم رائحة الورد، من ماء الورد».

«في ثواب التهليل»

يستوحىٰ من كلام العظام أنه لا ذكر أسمى مرتبة من ذكر «لا إله إلّا الله». وهذا الرأي يؤكده مضمون الكثير من الأحاديث الشريفة.

في هذا المجال نكتفي بعرض عدة أحاديث عن نبينا المصطفىٰ ﷺ والائمة المعصومين عليهم السلام:

روىٰ أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ انه قال:

«قال الله جل جلاله لموسى بن عمران: يا موسى لو أن السموات وعامريهن عندي والأرضين السبع في كفة ولا إله إلّا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلّا الله»[1].

أي أن عالم الوجود قائم على التوحيد وهو علة السماوات والأرض، ولولاها لما كان للمعلول (السماوات والأرض) وجود خارجي.

---

١ ـ ثواب الأعمال، ص ٢، ثواب من قال: لا إله إلّا الله.

وروىٰ جابر بن عبد الله أن رسول الله حدثهم عن أمرين يسببان أمرين آخرين، فالموت مع الشهادة بوحدانية الله هو سبب الفوز بالجنة والموت مع الشرك يلقي الإنسان في نار جهنم.

كما روىٰ جابر بن يزيد الجُعفي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقنوا موتاكم لا إله إلّا الله، فإنها تهدم الذنوب، فقالوا: يا رسول الله فمن قال في صحته. فقال ذاك أهدم وأهدم. إنَّ لا إله إلّا الله أنس للمؤمن في حياته وعند موته وحين يبعث.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جبرئيل عليه السلام: يا محمد لو تراهم حين يبعثون هذا مبيض وجهه ينادي لا إله إلّا الله والله أكبر. وهذا مسود وجهه ينادي: يا ويلاه يا ثبوراه»[1].

وروى عنه أيضاً ما رواه عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال:

«ليس شيء إلّا وله شيء يعدله إلّا (الله) عز وجل فإنه لا يعدله شيء، و (لا إله إلّا الله) فإنه لا يعدلها شيء. ودمعة من خوف الله فإنه ليس لها مثال، فان سالت على وجهه لم يرهقه قتر ولا ذلة بعدها أبداً»[2].

ويروي عبيد بن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لا إله إلّا الله ثمن الجنة»[3].

وعن هشام بن سالم وأبي أيوب، أن الامام الصادق عليه السلام قال:

---

١ ـ ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص ٢.

٢ ـ ثواب الأعمال، ص ٣.

٣ ـ ثواب الأعمال، ص ٤.

«من قال لا إله إلّا الله مائة مرة كان أفضل الناس ذلك اليوم عملاً إلّا من زاد»[١].

١ ـ ثواب الأعمال، ص ٤.

«هو الظاهر وهو الباطن»

لا سبيل لاجتماع أي متضادين أبداً ولكن لما كان عالم الوجود كله مسرح تجليات تلك الذات وللعالم ظاهر وباطن وكلا الظاهر والباطن منه، العلة هو والمعلول الظاهر، بدوره، تجل ومظهر من مظاهره. فعدم الظهور سببه أما البُعد وهو ما لا يتلاءم وشأن الله سبحانه وتعالى وهو القريب الذي وصف قربه إلى مخلوقاته بالقول:

﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[1].

وأما يكون بسبب وجود مانع يحول دون ظهوره أو حجاب يخفيه فتتعذر رؤيته، ولا حجاب لله إلّا السيئات من فعال عباده:

(انك لا تحتجب عن خلقك»[2].

والحجاب الثالث، وهو الأخير، هو القرب، منتهى القرب الذي يمنع الرؤية. فأنت إن وضعت صفحة الكتاب على عينيك تتعذر عليك

---

١ ـ سورة ق، الآية ١٦.

٢ ـ من دعاء أبي حمزة الثمالي.

القراءة. كل هذه الأمثلة اخترتها لك من عالم المحسوسات لا المجردات لاستدراجك من المحسوس إلى المعقول.

إن سألت المحيطين بك في منزلك الذي تسكنه: ماذا يوجد هنا؟ كن واثقاً أنهم سوف يذكرون كل شيء إلّا الهواء وهو الذي يشغل نطاقاً أوسع من كل شيء، وتنعدم حياتهم لا محالة في حالة حرمانهم منه عدة دقائق. بعد الإشارة إلى الهواء، إسأل: وماذا بعد؟ ربما لم يهتدوا إلى شيء آخر، بينما يوجد هنالك «الضوء» أيضاً. فبوجوده أبصروا ما ذكروا من أسماء، فالضوء أي النور هو في الحقيقة مُظهِر الأشياء. فكيف يرى الناس كل شيء ولا يبصرون النور؟! هل لك أن تذكر شيئاً يكون أوضح للعيان من الضوء والنور؟ إن أنت أمعنت أكثر سوف تلتفت إلى أن كل ما ذكرت إنما هي مظاهر من الوجود. فكيف لم تتنبه إلى الآن إلى هذا السر؟ فالحق تعالىٰ هو الوجود المطلق. عندما سئل الإمام علي عليه السلام عما هو الوجود، رد بدوره متسائلاً فما هنالك سوى الوجود؟[1].

إذاً، معرفة حضرة الحق هو أعرف وأقدم من كل معرفة، لأننا نرى الوجود أولاً ثم ماهيته وتجلياته.

فيا أيها العزيز!

الحيوانات هي الأخرى ترىٰ الماهيات.. وميزة بني الإنسان هو النظر في الوجود، وليس أي وجود بل الوجود المطلق الذي يمثل

---

١ ـ انظر كتاب «الانسان الكامل» لعزيز النسفي.

جميع العوالم مظاهر له وقد أمكنه الله تعالىٰ من هـذه الرؤيـة بـنعمة التفكير حيث جعلها غريزة فطرية في ذاته، ولكنه صرف اهتمامه إلى الماهيات حتى صار الوجود مغيباً وراء حجاب النسيان. أنت تعلم أن النسيان يتبع العلم. من هنا يقول تعالى:

﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم..﴾[١].

عندها تعمّ عتمة عالم الطبيعة بصيرة الإنسان حتى يغفل إثرها عن نور الوجود ثم ينسى بعد ذلك حتى ذاته.

أما إذا وجهت نظرك إلى باطن الخلق متقصياً علة العلل فقد أرشدك الله تعالىٰ بقوله:

﴿فاعلم أنه لا إله إلّا الله﴾[٢].

فمتى ما نظرت في الظاهر نبهك الحق أن «لا إله إلّا الله»، ولكن لما تنجلي حجب جماله الفاتن عن بصيرة أهل الكشف علموا أن:

﴿لا إله إلّا الله الملك الحق المبين﴾[٣].

و ﴿يعلمون أن الله هو الحق المبين﴾[٤].

ولاطلعك، وأنت قد غرقت في بحر الغفلة، على معلومات جديدة. أمعن في الحديث التالي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فإنه يجلي عن

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١٩.

٢ ـ سورة محمد، الآية ١٩.

٣ ـ «ثواب الأعمال».

٤ ـ سورة النور، الآية ٢٥.

عينيك المستطلعتين الكثير من الحجب: «... من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك، ومن زعم انه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقر بالطعن لأن الاسم محدث، ومن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى فقد جعل مع الله شريكاً، ومن زعم انه يعبد المعنى بالصفة لا بالادراك فقد أحال على غائب، ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف، ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير وما قدروا الله حق قدره..».

ولما سئل عليه السلام عن الطريق إلى التوحيد الحقيقي، قال:

«باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود. ان معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه..

قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟

قال عليه السلام: تعرفه وتعلم علمه وتعرف نفسك به ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك. وتعلم أن ما فيه له وبه، كما قالوا ليوسف.. قال: أنا يوسف، وهذا أخي فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب..»[1].

وهذا الحديث الوضاء ولكأنه شمس تشرق في آفاق نفسك، فأكثِر التفكير والتمحص فيه. فإخوة يوسف ربما كانوا عنده عدة أيام، جلسوا إليه وتناولوا الطعام معه و.. ولكنهم لم يعرفوه حتى قدم نفسه إليهم بنفسه.

---

١ ـ تحف العقول، ص ٣٢٥.

أنت هكذا تحيا مع الله، ترىٰ الله، تسمع بالله، تتنبه لوجوده وتفكر بالله، ومع ذلك لا تعرفه فإن انهارت الحجب تقول:

«يا رب! بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ودعوتني إليك. ولولا أنت لم أدر ما أنت»[1].

حدثتك أن معلول العلة التامة إنما هو مرتبة نازلة من العلة ليس إلّا. فكيف ترى عين الإنسان كل هذه المعلولات في عالم الطبيعة وتغفل عن العلة. وقد قال الله تعالىٰ:

﴿أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[2].

فعلى أية حال:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[3].

إنه ظاهر دون استتار وباطن بمائة حجاب. إنه ظاهر وهو باطن وباطن في عين ظهوره.

ومع وجوده في كل مكان حيث لا يخلو من وجوده الصمدي أي مجال في العالم ولكن مع ذلك لم يره أحد.

واعلمن أن لكل شيء ظاهر يبصره الجميع وباطن لا تبلغه الحواس، وقيام ذلك الظاهر هو في الحقيقة بباطنه. من هنا، فإن كل شيء في العالم مظهر اسمي «الظاهر» و «الباطن». فالإنسان بحد ذاته،

---

١ ـ من دعاء أبي حمزة الثمالي (عن الإمام السجاد ـ ع ـ).

٢ ـ سورة فصلت، الآية ٥٣.

٣ ـ سورة الحديد، الآية ٣.

يمثل جسمه مظهر اسم «الظاهر» ونفسه وملكوته مظهر اسم «الباطن» وكلاهما يرتبطان بحضرة ربهما ارتباطاً ينطلق من الظاهر باتجاه كنه الأشياء:

﴿والله من ورائهم محيط﴾[١].

وهو الذي عرض صفاته في عالم الشهود حتى ذهب البعض إلى أن لفظة «العالم» مأخوذة من «العَلامة» فالعالَم ليس إلّا علامته وتجليه.

سئل الإمام علي عليه السلام عما إذا كان قد رأى الله، فما كان رده إلّا تأكيداً بأنه ما كان ليعبده لولا أنه رآه: «لم أعبد رباً لم أره».

وفيما تردد على لسان الإمام الحسين بن علي عليه السلام ضمن دعاء عرفة:

«أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المُظهر لك. متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك»[٢].

وتعلم أن «المُعرِّف» لابد أن يكون أعرف من «المُعرَّف»، فكيف يكون المخلوق أعرف من خالقه ليُعرِّفه، والحقيقة هي أن مُعرِّف جميع الموجودات هو ذات الحق الأزلية:

«عميت عين لا تراك»[٣].

---

١ ـ سورة البروج، الآية ٢٠.

٢ ـ مفاتيح الجنان.

٣ ـ مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.

واجتماع هذين الضدين (الظاهر والباطن) لا يحدث بالطبع إلّا في شأن حضرته:

«كل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر»[1].

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٦٥.

«الأول والآخِر»

وهما أيضاً من الأسماء المتجلية في جميع الكائنات، فلكل موجود حادث أولٌ وآخر. فالمعدوم يكتسب صبغة الوجود بقدرة يد موجود قديم هو مُوجده وهو الأول بالنسبة له، وبانتهاء فرصة حياته ووجوده تسلبه الوجود نفس اليد وهي يد الآخِر بالنسبة له. من هنا يسيّر وجود كل موجود ذات الأول والآخر.. وهي ذات من «يحيي» و «يـميت» وهو عينه أول كل موجود وآخر كل موجود.

﴿أَوَ لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾[1].

﴿هل أتىٰ على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾[2].

ومضمون هذه الآية يعمّ جميع الموجودات الحادثة:

ويقول تعالى في آية أخرىٰ:

---

١ ـ سورة مريم، الآية ٦٧.

٢ ـ سورة الانسان، الآية ١.

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾[1].

ما تنسبه الآيتانِ الآنفتان إلى الإنسان هو العدم المحض، وإلى الحق تعالى هو الخلق وكمال صفة السمع والبصر.

على هذا، تعود حقيقة المخلوق بكله إلى ظلام العدم. والخالق من جهة أخرى كله نور الوجود.

وفي هذا المظهر الذي استعار وجوده آنياً تتجلى صفات الخالق فهو الحي وهو القيوم، وهو العالم وهو السميع، وهو الشاهد وهو الأول وهو الآخر. من هنا يقول بعض العظام: كأن القيامة قد قامت بالنسبة للعرفاء حيث وصف الله تعالى مشهد من مشاهد يوم القيامة بقوله:

﴿فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾[2].

وهذا هو ظهور الحق تعالىٰ، فعند تجليه يغيب عن الوعي كل من يبعث يومئذ في السماء والأرض، ويغفل عن نفسه تماماً، وهذا هو حال العرفاء اليوم، فإن قيل:

«كان الله ولم يكن معه شيء»[3].

يقول هو: «والآن كما كان».

فشرط السلوك إلى الله ايها العزيز! هو أن تعزف عن حب غيره والنظر إلى سواه وأن تكثر التفكير فيمن هو أولك وآخرك ما دمت قد

---

١ ـ سورة الانسان، الآية ٢.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٦٨.

٣ ـ الحديث عن الإمام موسى بن جعفر (ع).

علمت انه هو كان فمنحك الوجود أولاً وهو الآخر الذي يأخذك إليه أخيراً.

«التوحيد»

إعلم أن لتوحيد تلك الذات الكريمة تجليات ثلاثة، هي:

(الأول):

(توحيد الذات): لا سبيل للكثرة إلى ذاته الكريمة قط. واسمه في هذا المقام «الله»، فهذا الاسم الشريف هو اسم ذاته الذي خصَّه عز وجل بذكر التوحيد في الآية:

﴿قُل هو الله أحد﴾.

(الثاني):

(توحيد الأسماء والصفات)، فهي رغم كثرتها كلها تجليات لذاته الواحدة وهي عين ذاته. فالجميع فانون في ذات «الأحد».

أنت مثلاً توصف بصيراً لانك تتمتع بصفة البصر وسميعاً لأنك ذو قابلية على السمع وعالماً لما لك من صفة العلم. هذه الصفات كلها بل حتى لو أضيفت منها إلى نفسك المئات لا تخلّ بفرديتك أبداً فأنت ما

تزال ذاك الشخص الواحد.

(الثالث):

(توحيد الأفعال): أي أن ذاته هي الوحيدة ذات التأثير في الأفعال والانعكاسات: يقول الله تعالى:

﴿ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾[١].

فكل الأفعال في عالم الوجود تجري بفعل قدرته وإرادته.

ورمز توحيد الذات تجده في ذكر «الخضرية» الذي علمه الخضر عليه السلام لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ووصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه «الأسم الأعظم» وهو: «يا هو يا من لا هو إلّا هو»[٢].

فالتوحيد الصفاتي يتلخص في عبارة «لا إله إلّا الله» والتوحيد الأفعالي في عبارة «لا حول ولا قوة إلّا بالله».

وهذه التجليات التوحيدية الثلاثة تفنىٰ في وحدة الخالق الأحد فتتوحد ثلاثتها في تلك الذات الشريفة. هذا ما كان يرتبط بالرب المتعال. ولكن الإيمان بهذه التجليات التوحيدية الثلاثة يتطلب توحيداً من نوع آخر ذا ارتباط بالمربوب. وهو التوحيد في العبادة.. بأن لا يعبد إلّا صاحب الذات الأحدية وهو يعلم أنه لم يكن ولن يكون لأي موجود غير معبوده العزيز دور وأثر في أمر خلقه وربوبيته وحياته

---

١ ـ سورة هود، الآية ٦٠.

٢ ـ الحر العاملي، الفصول المهمة.

ومماته.

إن أفضل تجسد لهذا التوحيد يظهر في الآية:

﴿قُل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[١].

الآن وقد عرفت أنه هو وحده صاحب التأثير والتسيير في خلقك وحياتك ومماتك وشؤون دنياك وبرزخك وآخرتك لُذ به منه، وبلطفه من سخطه بثوابه من عقابه، بجماله من جلاله، برأفته من غضبه كما تجد رسول الله ﷺ يتضرع إليه في دعائه:

«إلهي أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك».

وهو القائل:

﴿ففروا إلى الله﴾[٢].

كما نقرأ في بعض أدعية المعصومين عليهم السلام:

«لا إله إلّا الله وحده وحده وحده».

فوحده الأولى ترتبط بتوحيد الذات والثانية بتوحيد الصفات والثالثة بتوحيد الأفعال.

من هنا، الآن وقد تعمقت فهماً لهذا التوحيد، تنبه ايها العزيز بأن لا تحسبن أية صفة أو فعل أو جمال أو جلال إلّا تجلياً من تجليات أسمائه.

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

٢ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٠.

ما نخلص إليه من هذا البحث هو أنك لن تبلغ الذروة في هذا المقام إلّا إذا خلص ايمانك به:

قال الإمام علي عليه السلام:

«كمال التوحيد الإخلاص له»[١]. أي انك، لما حصلت لديك المعرفة بانه هو الوجود المطلق ومنه كل جمال وجلال وحسن وقيمة ونعمة وحياة، فحريٌّ بك أن لا تنظر إلّا إليه ولا يستهويك مظهر أو يفتنك حسن سوى ذاته وأن لا تودع مقاليد قلبك قط لغيره:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«القلب حرم الله فلا تُسكن في حرم الله إلّا الله»[٢].

فيا أيها العزيز! كل من ازداد تجرداً عن العقل في هذا السبيل فاز بحظ أوفر من الحكمة فهل تحرم نفسك من لقياه خشية الناس ووصفهم إياك مجنوناً؟ ألم تره يسعف حبيبه لما سمي بهتاناً المجنون يواسيه أن لا يغتم فقد نعتوا الأسبقين أيضاً هكذا:

﴿وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلّا قالوا ساحر أو مجنون﴾[٣].

---

١ ـ أصول الكافي.

٢ ـ أصول الكافي.

٣ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٢.

«كلمة الله»

قال رسول الله ﷺ:

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].

وجاء في حديث قدسي:

«إن الله تعالىٰ خلق آدم على صورته».

ونقرأ في الذكر الحكيم:

﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[2].

تؤكد هذه الآية على أمره تعالى بالسير في الآفاق وفي الأنفس فحصيلة رحلتيهما هي معرفة الحق تعالىٰ. ولما كانت النفس الانسانية تجلياً من تجليات الحق تعالى فبمعرفتها يسهل معرفة الله ذاته.

ما نتقصاه في هذا البحث هو اثبات ظهور العلم الإنساني، وهو من

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٩٥.

٢ ـ سورة الذاريات، الآيتان ٢٠ و ٢١.

المجردات، في إطار القول أو الكتابة. إننا ننطق بلغة تتكون من كذا عدد من الأحرف، فنصنع أصواتها بواسطة ادوات ووسائل إلهية تتمثل في الحلق وسقف الفم وعضلة اللسان والأسنان والشفاه. كأن فم الإنسان آلة موسيقية يعزف كل جزء منها نغمة خاصة. إننا نختلق أصوات الحروف فندغمها ببعض في آن واحد فنصنع منها كلمات تستقر إلى جانب بعض مكونة عبارات تتداخل معبرة لمحدثنا عن مضمون علمنا أو طلبنا منه. فلا سبيل لتجلي باطن الإنسان وإبدائه إلّا بهذه الأساليب الثلاثة: الفعل، القول، الكتابة.

﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾[١].

فالنطق من بدائع صنع الإنسان الذي يحول العلم المجرد فيجعله على هيئة صوت. فتوصلك لمعرفة باطن أي شخص يكون مستحيلاً إن أنت لم تسمع حديثه أو تطالع كتاباته أو تشهد عملاً صدر منه.

الآن وقد التفت لهذه الحالة اعلم أن حضرة «الباطن» لما أراد أن يعرض وجوده في تجليات اسم «الظاهر»، أظهر نفسه في كل من المجالات الثلاثة. فأوحى بكلامه إلى حبيبه ضمن القرآن الكريم. وأما كتابه الفاتن فهو عالم الطبيعة عرضه على مرآى عباده جميعهم. وفعله إنما يتمثل في كل وقائع وتحولات عالم الملك والملكوت:

قال الإمام علي عليه السلام:

١ ـ سورة الرحمن، الآيات ١ ـ ٤.

«إن الله تعالى قد تجلى في كتابه ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[١].

الآن أمعن وتنبه مثلما تتكون عبارات القرآن الكريم من الألفـاظ والكلمات، والعبارات تُكوّن الآيات وكل عبارة وآية قرآنـية تـتطلب حصول معرفة ما، فإن كل من موجودات عالم الوجود يمثل تركيبة من كلمات الله وكل موجود درساً في معرفة ربك.

فالشجرة مـثلاً تـتكون مـن كـلمات: الجــذر، الجــذع، اللـحاء والأغصان والأوراق والبراعم والثمار وهي تجل من تـجليات قـدرة ربك وعلمـه، وهلم جراً. لك أن تنظر إلى صفاته في كل ركن من أركان العالم.

إذاً، كل موجود هو كلمة من كلمات ربك، يحدثك الله بـها. فأنت اينما توجه بصرك تسمع بمسامع نفسك، من خلال ذلك المنظر، نداءه يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. والآن دقق في معنى كلمات الآية التالية:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[٢].

واعجباه! لقد قدم المحبوب بنفسه إلى السوق كاشفاً عن حـجابه فمن له قلب واله فهذا فاتن القلوب ومن له نفس توّاقة فـهذا مـعبود النفوس. فاعلم إنك إنما خلقت لمثل هذا اللقاء لا غير.

---

١ ـ نهج البلاغة.

٢ ـ سورة الكهف، الآية ١٠٩.

﴿ما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾[١].

ولما كـان بصرك مستعاراً لحصول مثل هـذا اللقاء، فإنك سـرعان مـا تسلبه إن وجهته إلى ما دون ذلك فتضيق الدنيا بما وسعت فـي نفسك:

قال تعالىٰ:

﴿من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ. قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فـنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[٢].

الآن، وقد التفتَ إلى أن كل موجود من الموجودات هو كلمة من كلمات الله، ولكل كلمة مضمون، فاعلم أن لكلمات الله التكوينية أيضاً في نفسك حديثاً وحديثاً مثلما تهمس كلمات الله القرآنية بكلامها في أذنيك. فكما تتحدث إشارات المرور معك بلغة الصمت فإن الكلمات التكوينية تتطلب أعيناً وآذاناً كشافة للبواطن متنبهة للأسرار لتكشف عن حقيقة هذه الآيات وتسمع همس الأسرار.

هنيئاً لأمثال الشاعر حافظ الشيرازي، فأغلب ديوانه حديث عـن أسرار كشفها في ثنايا سجل الطبيعة وأصغى إليها وهي تنساق عـلى لسان عالم التكوين. فهو تارة يفتح القرآن فيترنم فـي أذنـه بـحكاية قارون:

---

١ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٦.

٢ ـ سورة طه، الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

أحــوال گــنج قــارون کــايام داد بــر بــاد
در گوش گل فروگوى تا زر نهان ندارد[١]

وتارة يقرأ درس الحلم في لوحــة تــحمل المــعاناة وتــجشم بــلاء الأعصار في قصة النبي نوح ﷺ:
گرت چو نوح نبي صبر هست در غم طوفان
بــلا بگــردد و کــام هــزار ســاله بــرآيــد[٢]

وهو إذ ينتابه الاكتئاب في طريق سلوكه تــلتقط آذان نــفسه مــن النسيم نداء ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾[٣]، فيردد:
چو بــاد عــزم ســر کــوى يــار خــواهــم کــرد
نفس به بوى خوشش مشکبار خواهم کرد[٤]

---

١ ـ معناه:
ـ «الأيام أفنت خزائن قارون، فقص حكايتها على مسامع التربة لكي لا تدخر ذهباً».
٢ ـ معناه:
ـ «فإن كان لك كصبر النبي نوح (ع) في لوعة الأعصار، ينتهي البلاء ولك منه آلاف السنين هناء».
٣ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٣.
٤ ـ معناه:
ـ «سوف أرحل كالريح إلى ديار المحبوب، وانعش النفس بشذاه العبق».

وأحياناً له في تلف بتلات الأزهار درس رائع وعبرة حول التضحية في سبيل وصال المحبوب:

صبا كجاست كه اين جان خون گرفته چو گل

فداى نكـهت گـيسوى يـار خـواهـم كـرد[1]

وطوراً يعزّي نفسه بتفتح براعم الورود مع هبوب النسيم في وقت السحر ويمنّيها بجلاء كربها مع أنين أصباحها:

گــل مــراد تـو آنگـه نـقاب بگشـايد

كه خدمتش چو نسيم سحر توانى كـرد

دلا چو غنچه شكايت زكار بسته مكن

چو باد صبح نسـيم گـره گشـا آورد[2]

ولما يقرأ في كتاب التشريع الآية:

---

١ ـ معناه:

ـ «أين ريح الصبا فهذه النفس المحتقنة المتوردة، سوف أفديها لشذى ضفيرة الحبيب».

٢ ـ معناهما:

ـ «ورد مبتغاك سوف يكشف لثامه، متى استملته كنسيم السحر»،

ـ «فيا نفس كوني كالبراعم، لا تشكي تأزم أمورك، فقد تنكشف همومك مع هبوب نسيم الصبح».

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[١].

يشاهد في تكوين نفسه آثار إبكاره فيتغنى شاكراً:

گريه شام و سحر شكر كه ضايع نگشت

قطره باران ما گوهر يكدانه شد[٢].

هذا هو الانطباع العرفاني الذي يستوحىٰ من بعض أشعار الشاعر حافظ أما الانطباع التوحيدي فإنه ظاهر في كل من ذرات عالم التكوين.

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ١٢٠.

٢ ـ معناه:

ـ «حمداً فلم يذهب أنين الليالي والأسحار سدى، فقد تحولت قطرات أمطارنا درراً».

«كمال الذات وكمال الأسماء والصفات»

ذات الحق كل الكمال وكمال الكل وتجلي اسمائه أيضاً يقتضي مثل هذا الكمال الذي بحسبه:

﴿كل يعمل على شاكلته﴾[1].

وهذا الظهور يتوقف على إيجاد عالم الوجود حيث تعمّ أسماء الحق فيه نفس وملكوت الموجودات كلها:

«بأسمائك التي ملأت أركان كل شيء»[2].

فيمنح كل موجود على قدر حاجته واستحقاق قدره، ويرشد الجميع إلى نهج حياتهم ويهديهم السبيل إليه:

﴿ربنا الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدى﴾[3].

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٨٤.

٢ ـ من دعاء «كميل».

٣ ـ سورة طه، الآية ٥٠.

ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].

وهذا «موريس مترلينغ» كتب حول كل من النمل والنحل كتاباً سجل فيه لهذه المخلوقات حضارات يعود تاريخها لما يتجاوز آلاف السنين قبل تكون حضارتنا.

ويذكر عالم الأحياء الامريكي «كرسي موريس» لكل من أعضاء جسم الإنسان عجائب تعض فيها على الأنامل لشدة اندهاشك عند مطالعتها.

لابد لك من مطالعة كتاب «الانسان، الموجود المجهول» للدكتور «الكسيس كارل» أيضاً لتعلم أن سجل العلم الإنساني العصري لا يمثل أكثر من الصفحات الأولى من كتاب الخلق.

ما نعنيه من هذا الكلام هو: مع أن ماهيات كل موجود تمنح له وجودياً في حدود معينة وبحسب حاجته واستيعابه يمكنه استيعاب تجلي الأسماء بما لا حدود ولا حصر له.

فمن أسكره جمال المعبود يتجلىٰ له في كل موجود بألف مظهر من مظاهر اسمائه:

چو آفتاب مى از مشرق پياله بر آيد

ز باغ عارض ساقى هزار لاله بر آيد

---

١ ـ سورة الملك، الآيتان ٣ و ٤.

نسيم در سر گل بشكند كلالة سنبل
چو از ميان چمن بوى آن كلاله بر آيد[1]

وبما أنه لا سبيل للسالك إلى ذات الله، فإنه ملزم بعرض تجليات اسمائه وأن لا يحوّل عينيه عنها، فدعوة القرآن للنظر في ملكوت السماوات والأرض تعني النظر إلى نفس هذه الأسماء:

﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾[2].

﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[3].

ولما كان كل معلول آية من آيات العلة، هل تعرف موجوداً في عالم الوجود لا يعرض، بنحو ما، علته وصفاتها بلغته الخاصة، أغدق الله النفس النورانية للعلامة الطباطبائي ﷺ برحمته وغفرانه، فمع أنه كان فيلسوفاً ومفسراً للقرآن، كانت نفسه تعج بالعرفان. ومع أنه لم يكن شاعراً ولكننا نجده قد تحدث في خلواته بغابات شمال ايران عن هبوب النسيم وترنم الأوراق، فافرغ ما في جعبته من مشاعر وأحاسيس في إطار الشعر.

---

١ ـ معناهما:

ـ «متى ما أشرقت شمس الشراب من مشرق الكأس وتلألأت آلاف الورود على وجنات السقاء»،

ـ «ينثر النسيم سمة السنابل على رأس الورود، إذ ينبعث شذى تلك السمة من عشب المرج».

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

٣ ـ سورة يس، الآية ٨٣.

«عالم الطبيعة صورة مرآتية للحق تعالىٰ»

ايها العزيز!يصف العرفاء العالم بأنه صورة مـرآتـية للـحق تـعالى. فيقولون إن كانت تلك الذات الكريمة غير مرئية، فإن اسماءه ـوهـي روح عالم الوجود ـ تُعرض لعين القلب في سيماء الطبيعة. وهذا كلام متجذر في أحاديث ائمتنا عليهم السلام:

يروي الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد أن شخصاً يدعى عمران سأل الإمام الرضا عليه السلام، قائلاً: «ألا تخبرني يا سيدي، أهو في الخلق أم الخلق فيه؟ قال الرضا عليه السلام: جَلَّ يا عمران عن ذلك. ليس هو في الخلق ولا الخلق فيه. تعالى عن ذلك سأعلمك ما تعرفه به. ولا حول ولا قوة إلّا بالله. أخبرني عن المرآة. أنت فيها أم هي فيك؟ فإن كان ليس واحد منكما في صاحبه، فبأي شيء استدللت بها على نفسك...»[1].

كان هذا مثالاً عرضه الإمام عليه السلام لتشبيه المعقول بالمحسوس فـما

---

١ ـ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥، الباب ٦٥، باب مجلس الرضا علي بن موسى (ع) مع أهـل الايمان وأصحاب المقالات مثل جاثليق..

تستوحيه من هذا التشبيه هو قيام الصورة المرآتية بصاحب الصورة، فلا كينونة لتلك الصورة دون صاحبها ولو للحظة واحدة. هكذا تتفتح الأبواب أمام تجلي الحق تعالىٰ:

قال الإمام علي عليه السلام:

«سبحان الذي تجلىٰ لخلقه بخلقه»[١].

نعود للتأكيد على أن ذات صاحب الصورة لا تدخل في المرآة أبداً. ومع ذلك لا يقوم للصورة وجود حتى للحظة واحدة لولا تلك الذات. وهذا ما يعنيه الإمام علي في قوله:

«داخل في الأشياء لا بالممازجة وخارج عن الأشياء لا بالمباينة»[٢].

بتعبير آخر يمكن القول أن الظل معلول علته النور. فإن قلنا أن الله سبحانه وتعالىٰ هو النور ﴿الله نور السماوات والأرض﴾[٣] فالعالم ظله. فكما يهتدىٰ إلى خط نصف النهار الجغرافي من ظل أشعة الشمس إجعل في حسابك أن وجود العالم وحركته هو ظل الله.

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾[٤].

---

١ ـ نهج البلاغة.

٢ ـ نهج البلاغة.

٣ ـ سورة النور، الآية ٣٥.

٤ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٥.

من هنا فإن وجود الممكنات هو وجود ظلي لله. وأي موجود ظلي ليس له إلّا ما ناله من ارتباطه بذي الظل، فلا استقلال له بتاتاً.. وهذه القاعدة لا يستثنىٰ منها أي من الممكنات، فجميعها تتحدث دون شك عن الوحدة القيومية للواحد. وكل منها قبس من أشعة نور واجب الوجود:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾[1].

فنور رحمة الوجود لما أشرقت على عتمة كهف العدم، انبثقت الموجودات لفيفاً بعد لفيف من غياهب العدم:

«يارب بنور وجهك الذي أشرقت له الأرض والسماوات وكشفت به الظلمات وصلح به أمر الأولين والآخرين»[2].

فهل لمن وهبه غيره أصل وجوده غروراً يتبارىٰ به إزاء أي من مظاهر الوجود؟!

«إلهي انا الفقير في غناي. فكيف لا أكون فقيراً في فقري. إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.. إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك»[3].

وللفيض الكاشاني رأي وكلام في الصورة المرآتية أعرض لك مضمونه وحري بك أن تملي التفكير فيه بدقة:

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٦٩.

٢ ـ مفاتيح الجنان، دعاء عرفة للإمام الحسين بن علي (ع).

٣ ـ المصدر نفسه.

يرىٰ أهل المعرفة ان للأعيان[١] الثابتة اعتبارين. أولهما هـو أنـها مرايا وجود الحق وصفات الحق واسماء الحق. والثاني هو أن وجود الحق مرآة لها. وبحسب الاعتبار الأول لا يظهر إلى الخارج إلّا الوجود المتعين في مرايا الأعيان ويكون اعتبارها في تعددها. وهذا الاعتبار يقتضي ان لا يكون في الخارج إلّا وجود الحق. وليس للاعيان ثبوت إلّا ما يبلغ شامة الأعيان من الوجود الخـارجـي فـي حـضرة العـلم الربوبي. وهذا الكلام هو وصف لحال موحد غلب عليه شهود الحق. وبحسب الاعتبار الثاني ليس هنالك من شيء أبداً فـي وجـود غـير الاعيان، وأن وجود الحق ـ وهو مرآة الاعيان ـ غـيب لا يـتجلى ولا يظهر إلّا من وراء حجب الغيب وسرادقات الجـمال والجـلال. وهـذا الكلام هو وصف لحال مَن يغلب عـليه شـهود الحـق وكـلتا هـاتين الطائفتين ناقصتان. فالمحقـق الكامل هو من يشاهـد كلتا المـرآتـين دومـاً.. أعـنـي مـرآة الأعـيان ومـرآة الحــق (ومـضمون الكـلام للكاشاني)..

إفترض الموجودات مرآيا متعددة واعتبر ما نراه فيها من الكمالات المحسوسة والمعقولة صور اسماء الحق تـعالى وصـفاته بـل إحسب العالم كله مرآة وانظر فيها إلى الحق بتمام اسمائه وصفاته...

بادئاً كنت تنظر إلى الحق في غير نفسك، والآن في نفسك فارتق عن هذا أيضاً ولاحظ أن الممكنات (من حيث هـي) غـير مـوجودة

---

١ ـ أي الماهيات.

فاقصها واعلم أنها صور تجليات الحق وقائمة به. فهي كـمال الحـق وجماله الذي تشاهده في الحق. ثم ارتق عن هذا وغيّب نفسك وتخل عنها وكن مدركاً للحق ومشاهداً له «فهو الشاهد والمشهود»[١].

١ ـ لمطالعة نص الكلام بحذافيره، راجع الكلمات المكنونة، ص ٢٩.

«بمعرفة الله، يهتدي الإنسان إلى نفسه»

ايها العزيز! أما ترىٰ المفلسين بعد ثراء كيف يضجون ويئِنون لفقدهم أحد تعلقاتهم الدنيوية؟ فيا عجباه من أمر الإنسان لا يكل من الأنين لفقد المال بينما لا يؤلمه أبداً فقده نفسه:

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

من فقد نفسه لا يعثر عليها حتى إن اخترق أجواء الفضاء وجاب الآفاق ولكنه يجد ضالته هذه إن هو نظر إلى الله وعرفه. وبنسيانه ربه يخسر نفسه ويفقدها حتى يعثر عليها في مقصلة عذاب جهنم:

قال تعالىٰ:

﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[2].

فتاج الدين حسين بن حسن الخوارزمي، بعد ذكره عبارة ابن عربي التالية، في شرح «فصوص الحكم»:

---

١ ـ سورة هود، الآية ٢١.

٢ ـ سورة الحشر، الآية ١٩.

«فهو مرآتك في رؤيتك نفسك وأنت مرآته في رؤيته اسمائه وظهور أحكامها»، يكتب:

فما يظهر إلى الوجود هي الأعيان الثابتة وكمالاته المتجلية في الأعيان هي اسماء الوجود واحكام صفاته، فهي محل سلطان الاسماء الالهية. وهذا ما تعنيه إشارة النبي الكريم ﷺ، أعني رؤية الإنسان ذاته في مرآة الحق، ومشاهدة الحق تعالى لأسمائه وصفاته في مرآة عبده، حيث يقول:

«المؤمن مرآة المؤمن».

من هنا إن كنت راجياً أن تعرف نفسك لا يحصل لك ذلك إلّا إذا نظرت إلى حضرة ربك.

ومع أن الصورة المرآتية لحضرة الحق لا تراها في هيكل الشخص إلّا أنه يمثل مظهره وتجليه.. فأي من محاسن الشخص يتجلى؛ لا محالة، في هذه الصورة. فأنت إن أردت النظر إلى شخص، يدير إليك ظهره ووجهه إلى المرآة، لا يحصل لك ذلك إلّا بالنظر في المرآة وهذه هي حقيقة النظر إلى أسماء الله تعالىٰ في الماهيات.

يرى ابن عربي أن عالم الشهود هو خلق مُتوَهم حيث يقول:

«فهو مشهود في خلق متوهم».

ويكتب القيصري في شرح عبارته هذه:

«أي ظاهرة في صورة خلق متوهم هي الصورة الظلية وإن كان ما يُدرك ويشهد فهو حق والخلق متوهم. لأن الحق هو الذي تجلىٰ في

مرايا الأعيان فظهر بحسبها في هذه الصورة. فـالظاهر هـو الحـق لا غير»[١].

ولا يكون لك النظر إلى الله تعالى إلّا بفضل تجلياته ومظاهره.

ويحصل ذلك عند نظرك في الصورة المرآتية لا المرآة نفسها. تنبه إلى انك عندما تعتزم على شراء مرآة من محل بيع مرايا، قـد تشـاهد مئات منها هنالك. أنت هنا تشاهد المرآة نفسها ولكنك في طور آخر تريد أن تنظر إلى نفسك في المرآة. في هذه الحالة لا تهمك المرآة بل تنظر إلى صورتك وهي مظهرك التام ليس إلّا. وما نعنيه في هذا المجال ليس النظر إلى مرآة المـاهيات بـل إلى جـمال وجـلال تـلك الذات الكريمة التي استترت وراء الحجب بينما ظهر حسنها، ولكن ليس بكل ما في كنز صفات ذاته بل كما يقول الشاعر حافظ: (هر دو عالم يک فروغ روى اوست)[٢].

كل هذا الشغف المؤجج في قلوب عشاق دياره، حصل لرؤية شعاع من نوره انبعث من ثنايا حجب غيبه فلو أزيحت الحجب فـلا مـرآة تبقى ولا ناظر إلى المرآة.

لم يدّع «بوذا» النبوة بل كان يرى أن بالامكان النفوذ إلى الملكوت بالرياضة والمجاهدة وربما كشفت له أسرار عن طريق المجاهدة. لقد

---

١ ـ شرح فصوص الحكم.

٢ ـ معناه:

ـ «كلا العالمين قبس من نور وجهه».

كان موحداً، وكان يرى أن الإنسان إن وسعه أن يتحسس نفسه فـي وجود المحبوب فإنه سوف يشعر به، عاجلاً أم آجلاً في كل مكان.ما ان يتفتح هذا الباب لأول مرة وما أن ينظر إلى نفسه في أي شـخص آخر سوف يتعذر عليه أن ينسى هذه النظرة ولهذا يتحول كل شيء إلى باب للدخول. ومن هنا يذهب إلى القول بأن الحب هو التأمل[١].

---

١ ـ انظر كتاب «حياة بوذا».

«المعية القيومية لله مع الماهيات»

يطلق مصطلح الماهيات على كل الأشياء، وهي تجليات الوجـود المطلق الذي أظهر صفاته بنحو ما في كل من موجوداته:

«بأسمائك التي ملأت أركان كل شيء»[1].

الكل هو.. فقد تجلىٰ في مظاهر تستنهض الهمم للنظر إليها. فبمثل هذا النظر تحصل المعرفة، معرفة يتلخص فيها الهدف من الخلق:

«كنت كنزاً مخفياً، أحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»[2].

هنا يظهر لك علمه وهناك كرمه وتـارة قـدرته وأخـرى رزاقـيته وطوراً جماله وطوراً جلاله. ثم أنه أودع فـي فـطرتك حب الجـمال والجلال لتستنفر قواك بفعل جاذبة الحب فتجهد أملاً في لقياه، آخذاً طريقك من عالم الظاهر إلى عالم الباطن. فصفات الحق تـعالى كـلها مجردة، وهي في الحقيقة روح الأشياء، أي أنها بعبارة أخرى الوجود

---

١ ـ من دعاء كميل.

٢ ـ حديث قدسي.

المنبسط لظلال أصلها تلك الحقيقة التي يستوحيها العرفاء من الآية:

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً﴾[١].

إذاً، لا أصالة لأي موجود في العالم سوى الله، فكما أن الظل هو معدوم بحت دون ذي الظل، فأن الوجود وحركته كلها منه. والممكنات بغض النظر عن كونها تجليات الرب، فإنها عدم محض، وكل ما فيها من كمال وجمال إنما هو من ذات واجب الوجود تعالىٰ شأنه.

كل ما في الكون وهم أو خيال   أو عكوس في مرايا أو ظلال

فليس ثَمَّ شيء سوى العدم فيما عدا تجليات حضرة الحق. ولا يقال للعدم شيء. فالظل هو غياب النور والجهل انعدام العلم والضعف انعدام القدرة. من هنا فكل ما في الوجود هو من تجلي اسمائه تعالىٰ.

تعلم أن العالِم لمّا يرغب في عرض شيء من علمه أما يلجأ إلى الكتابة أو الكلام.. الكريم المطلق يبسط مائدته، والجميل يكشف عن سيمائه.

فلما رنت نغمة «كن»[٢] في العدم اهتز العدم بظهور اسم «الحي» انتعاشاً لرنين صوته المُوجِد، فانطلق نحو حضرة «الحي». من هنا

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٥.

٢ ـ المقصود منها الآية: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). (سورة يس، الآية ٨٢.

تسمى «الحركة الجَوهرية»[1] الكامنة في جميع الموجودات «الحركة الحُبّية». بينما خصصت موهبة المعرفة زينة للإنسان دون غيره من الكائنات جميعاً: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[2]، فهو الوحيد من بينها القادر على النظر إلى جميع الأسماء في الماهيات، فجعل العالَم عالَم علم ليتسنى لك النظر فيه إلى العالِم. بسط في الأرض مائدة رزقه الواسعة لتشاهد حضرة «الرحمن» من خلالها. وقال داعياً:

﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[3].

فحري بالمحب أن يولع بلقاء المحبوب، فكله حاجة إليه. وها هو المحبوب يقول:

﴿ألم تر إلى ربك﴾[4].

فما أعظم كنه هذه الآية. توحي إليك باللقاء. وأي لقاء! لقاء يتم بنظرك في كل من موجودات عالم الوجود. فصاحب المرايا جعل لجماله في كل من مخلوقاته مرآة.

---

١ ـ يمكن تلخيص مفهوم الحركة الجوهرية في العبارة التالية: «كل كامن ولأجل تحويل قواه إلى طور الفعل يكون في حركة متواصلة لا يتوقف عنها للحظة واحدة».

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٣١.

٣ ـ سورة الذاريات، الآيتان ٢٠ و ٢١.

٤ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٥.

«العالم مرآة جماله»

أمعن في الحديث القدسي التالي. تالله ما أنعشه!

«لو علم المدبرون عني كيف اشتياقي لهم وانتظاري إلى توبتهم لَـماتوا شوقاً إليَّ وتقطعت أوصالهم»[1].

إنك لتعلم أن الكريم إن لم يطرق بابه محتاج مستعطياً ذهب بنفسه إلى دار المحتاج يـبذل له عـطاءه. والله، إنـه لمـن كـرمه وفـضله ان تتعشعش في نفوس عباده هداية تكوينية وتشـريعية وحـالات مـن الهداية الخاصة لتنقذهم من براثن الشيطان وتدعوهم إلى ملك الرحمن. فكل شيء في عالم الوجود يدعوه بجاذبية الاسماء إلى حضرته كأن العالم غرفة زليخا حشدت فيها المرآيا عسىٰ يوسف الممتنع عن النظر إليها أن يرى جمالها في تلك المرايا.

فديت نفسي للمفدى الذي يتراءى تارة في أجواء النفس وأخرىٰ في أرجاء العالم، أحياناً يُغيِّب وجهه ويظهر أحياناً بـوضوح يـنسيك

---

١ ـ انظر كتاب «لقاء الله» للملا جواد تبريزي (قده).

نفسك، ويكون أحياناً أخرىٰ باطناً بدرجة من الخفاء لا ترىٰ فيها إلّا نفسك وأنت في حضرته فإنه:

﴿كل يوم هو في شأن﴾[1].

فما حيلتنا مع الحب؟ فالمحب لا يقوى لا علىٰ تحمل القرب ولا على تحمل الفراق.

لولاك مالنا إلّا العدم. فكل ما وجد هو منك. فأين أوجه وجهي ولا أراك؟! وهل هناك ثَمَّ مكان لا يكون مكانك؟ ولا يكون محل استقرارك؟

يا من أنت أجلى من كل ظاهر وأخفى من كل باطن. فكل ظاهر هو ظاهر بظهورك وكل باطن هو باطن بك. فالناظر إلى الظاهر يراه بك والناظر إلى الباطن لا يراه دونك. أدركت جلاء العالم فيك. سنوات مديدة مرت وضالتي هي نفسي فلما عرفتك أهتديت إليها وعرفتها.

---

١ ـ سورة الرحمن، الآية ٢٩.

«التجلي»

أخبرتك قبل هذا أن نفس الإنسان هي باطنه ونحن بمعزل عن باطن الآخرين لنعلم كيف هي. ولكن هذا الباطن يتجلى بمظاهر ثلاثة وأنت تتعرف على باطن الآخرين من خلال هذه المظاهر الثلاثة، لأن:

﴿كل يعمل على شاكلته﴾[1].

وهذه المظاهر الثلاثة هي الكلام والكتابة والفعل (السلوك). ولكن لا يمكننا معرفة الله في تجلي اسمه «الباطن» إلّا من خلال ظهوره في التجليات الظاهرة. ولما كان ظاهره هو عين باطنه يمكننا القول أن ما يتجلى في الظاهر هو عين الباطن.

ذكرنا مسبقاً أن القرآن كلام الله، وعالم الطبيعة هو كتابه وكل وقائع الوجود هي فعله:

يقول الإمام علي عليه السلام:

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٨٤.

«إن الله قد تجلى لعباده في كلامه ولكنهم لا يعلمون»[١].

وعنه أيضاً:

«الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[٢].

فمثلما نتعرف من خلال رسائل الأشخاص ومضمون عباراتها على نمط عواطف مرسلها وعلمه ومودته أو ضغائنه، فإننا من خلال قراءة آيات القرآن والتأمل في معانيها نهتدي السبيل لمعرفة صفاته وأفعاله وأسمائه.

ولما كان هذا النهر ينبع من فيض حضرة الفياض، فبرشفة منه يتجلى لك صفاء ونقاء مخزنه ومصدره. فالقرآن سلم السماء فإن كانت بك رغبة لتقصي فلك المعرفة فتوكل على الله».

فكما يكفي عالم الطبيعة لكل ما في الوجود من كائنات حية بحسب قوله تعالى:

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه. إنا صببنا الماء صباً. ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غُلبا. وفاكهة وابّاً. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[٣]، فإن القرآن أيضاً كاف لكل أصحاب القلوب الحية المتيقظة، فهو روضة خلد زاخرة بالفواكه والخضار والبدائع. وببركته يشبع ويرتوي كل نَهم للمعرفة وظمآن.

---

١ ـ نهج البلاغة.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

٣ ـ سورة عبس، الآيات ٢٤ ـ ٣٢.

إنك تعرف أن القرآن بدأ بحرف الباء في عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» وينتهي بحر السين في كلمة «الناس» ومنها تتكون كلمة «بس»[1] بمعنى «الكفاية» فوالله لو لم يكن للسالك في درب الحق إلّا هذا الكتاب لكان يكفيه هادياً يمده بما يزيد عن حاجته نوراً.

ولتزداد معرفة بصفات ربك نكتفي بالتأمل معاً في آية واحدة:

وكمقدمة نذكر مثالاً: في بعض الدعوات يلقي حامل خطاب الدعوة البطاقة في الدار ويسترسل في طريقه لعدم رغبته في لقاء صاحب الدار أو لسبب آخر، ولكن أحياناً توجه الدعوة هاتفياً وقد يرسل أحد الخدم لتوجيه الدعوة أو حتى أحد الأبناء إن كان الضيف عزيزاً ومحترماً. أو تذهب بنفسك لأداء هذه المهمة وتبدي إلحاحاً شديداً لتقبل دعوتك بقولك: قدمت بنفسي لأضمن حضورك المؤكد. فهنالك اختلاف كبير بين هذه الدعوات وآخر أنماطها يحمل بين ثناياه ما لا يحدد من بشائر الحب والمودة:

إن كنت استوعبت مدلول المثال، دعنا نتأمل في الآية:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾[2].

أمعن أنه نسبك إلى نفسه في مستهل الآية فسماك عبده ثم عرض قربه منك منه وبعدها قدم لك الوعود بتلبية مطاليبك إن أنت توجهت إليه

---

١ ـ كلمة فارسية معربة

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٨٦.

وقدمت طلبك بين يديه. ثم أنه يؤكد على أن عباده ما دام لهم مثل هذا الرب تتوجب عليهم استجابة دعوته والايمان به لعلهم يهتدون السبيل إليه. إنه تجلى لسبع مرات في هذا النداء في إطار الاسم والضمير موجهاً دعوته إليك لتتوجه إليه. فإن أدركت هذه الحقيقة سوف تستوعب من هذه الآية مدى رأفة صاحب الدعوة بك وحبه لك. وماذا عن قربه إليك؟ وحتى حثه لك عساك أن تتوجه إليه وتحفظ نفسك من أن تغدو فريسة للشيطان في مدلهمات الدنيا؟ هذا ما كان من سر وحقيقة تجلي المحبوب في آية واحدة من آيات القرآن الكريم. فكيف الحال إن تأملنا جميع الآيات مع توخي الدقة في فهم معانيها؟ فأنت إن فعلت ذلك، سوف يتجلى لك حضرة رب الأرباب بجميع صفاته العظيمة. هذا هو السبيل إلى معرفته عن طريق كلامه ووحيه:

يقول الامام علي عليه السلام:

«فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته»[١].

فما دام هذا الكتاب العظيم مرآة يتجلىٰ لك منه المحبوب الأزلي ينبغي أن لا تعترينك وحشة أبداً مع وجوده فإنه خير أنيس بالنسبة لك.

قال الإمام السجاد عليه السلام:

«لو مات مَنْ بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

القرآن معي»[١].

وأما ظهور الوجود المطلق وتجليه في عالم الطبيعة، فإنه أمر دائمي شامل فليس ثمة موجود لا يمثل قبساً من إشعاعات تجليه. فجلوات الاسماء الحسنى تتجلىٰ في الأعيان في أطوار متنوعة وبمراتب مختلفة. فتعين كل موجود يتم أما بالتقدم أو التأخر أو بالكمال والنقص أو الغنىٰ والفقر وهذا يحدث عندما ننظر إلى نفس حقيقة الوجود باعتباره وجوداً متجرداً عن المادة والمظاهر المادية. فالنقص والفقر والحصر أمور ترتبط بالماهيات فقط حيث يتلقى كل منها من فيض حضرة دائم الفضل ودائم الفيض على قدر استحقاقه واستيعابه مثلما يستوعب كل وعاء على قدره واستيعابه من ماء المطر وإن كان قد نزل بمنسوب ثابت في محل هطوله في جميع الأرجاء.

فلما لم يكن هنالك موجود إلّا وقد نال نصيباً من تجلياته، ونور تجليه إنما هو إشعاع شمسي يتناسب مع أصله، لابد أن نتقصى شرحاً وافياً لكل من الموجودات.. وهي كلها كلمات حضرة المتكلم، وهو ما لا يسعه هذا الكتاب بل يمكننا القول: كل موجود يتطلب بحد ذاته كتاباً بل كل جزء منه يتطلب كتاباً.

ولأنصرف عن بيان كلامي الشخصي لتلقي نظرة في علم ربك من خلال النظر في تجليات عالم الطبيعة من وجهة نظر الآخرين آتيك بكلام من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن النمل:

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢.

«ألا ينظرون إلى صغير ما خلق، كيف أحكم خلقه وأتقن تـركيبه وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر! انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بـلحظ البـصر (النـظر) ولا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتُعدّها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وفي وردها لصَدَرها. مكفول برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديّان، ولو في الصفا اليـابس، والحـجر الجـامس! ولو فكـرت فـي مجاري أكلها، في علوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً! فتعالى الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها! لم يَشرَكه في فطرتها فاطر، ولم يُعنه على خلقها قادر. ولو ضربت فـي مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، مادلتك الدلالة إلّا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصل كل شيء وغامض اختلاف كل حـي، ومـا الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف، فـي خـلقه إلّا سواء، وكذلك السماء والهواء والرياح والماء...»[1].

***

والآن نعرج على رأي عالم بايولوجي امريكي في النمل والنـحل حيث يقول:

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

«للنحل والنمل تنظيمات وحكومة ونظام خاص. فلهم جنود وخدم معيّنون لأداء الأعمال. وإن كانت أدمغتهم أدق من رأس الأبرة ولكنها تحسن تطبيق فلسفة «فرد واحد للجميع والجميع في خدمة فرد واحد» في حياتها. فعمال النمل تنقل الحبوب صيفاً إلى جحورها وتدخرها في المستودعات فيقوم أقوياء النمل ذوو الفكوك الخاصة بسحقها وطحنها ليستفاد منها الآخرون في فصل الشتاء. بعضها ينشغل بالزراعة فيزرع نوعاً من الفطر تستهلكه بنفسها. يؤهلون الدحموريات كأنها تعمل في رعي القطعان فتصحبها للرعي إلى سيقان النباتات لتمتص عصارة الأشجار فتتناول هي تلك العصارة ثم تعود بقطيع الدحموريات شتاء إلى الجحور. فكيف يمكننا أن نذعن أن خلايا مجهرية تتركب الملايين منها لتوجد نملة واحدة قادرة على أداء مثل هذه الأعمال؟! ألا يتوجب أن نذعن بأن هذه الموجودات يصحبها عقل وشعور مجرد وبعيد عن عالم المادة، يدبر أمرها؟»[1].

البعض ممن ألِفوا التفكير السطحي يصفون هذه الأعمال بالغريزة! ولكنهم لم يحددوا أي عالم وحكيم ولّد هذه الغريزة بمثل هذه الدرجة من الحكمة والعلم؟! بينما تمثل نفس هذه القضايا بالنسبة لأي عبد موحد من تجليات حكمة الله وعلمه:

﴿وهو بكل شيء عليم﴾[2].

---

١ ـ كتاب «أسرار خلق الإنسان» لكرسي موريس.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٩.

«وبعلمك الذي أحاط بكل شيء»[١].

هذا هو ما حدثتك عنه مسبقاً في أن «معلول العلة التامة ليس إلّا مرتبة نازلة من العلة» وبأخذ حقيقة أخرى بنظر الاعتبار وهي أن صفات الحق تعالىٰ لا تقع على الذات وما تلك الصفات إلّا شؤون الحق تعالى في تجلياته لا ذاته. فتبصر!

تمعن فيما يقول نفس عالم الأحياء حول موضوع آخر.

«عندما نفكر في الفضاء اللا متناهي، الزمان الممتد دون نهاية، الطاقة العظيمة في داخل الذرة، عوالم تسبح فيها منظومات لا حصر لها وسيارات وكواكب ثابتة لا تعد، ارتعاشات أسميناها الضوء، كهربائية الكهرب، قدرة تشعشع السيارات، قوة الجاذبية وقوانين أخرىٰ يتوقف عليها نظام العالم نلتفت إلى ضآلة شأننا. حقاً ما أطول الطريق أمام الإنسانية وما أقبح اعتراضنا على أمر الله»[٢].

حقاً ما أتعس ذلك الإنسان الذي يقضي عمره متحرياً أسرار العالم العلمية ولا يهتدي من خلال هذه الأسرار والعجائب إلى مدبر شؤون العالم.

لا تقل أنني ابتعدت عن أصل الموضوع! فبحثنا بحث تجليات حضرة الحق تعالىٰ. الحقيقة أنني لم أعد أذكر من أين بدأته وبم ومتى أنهيه. فأينما أهدي مركبتي أجدني أمام تجليات ربي. فكل الأرض

---

١ ـ من دعاء كميل.

٢ ـ انظر كتاب «اسرار خلق الانسان» لكرسي موريسن.

والسماء ساحة لصولات هذه المركبة. عسى أن يهبنا الله بصيرة نزيهة، بوسعها أن تنظر إليه. وما أخزى عين لا تراه مع كل هذه التجليات.

تنبه إلى أن الإنسان ما دام يركز في ماهيات الظاهر ويغفل عن الوجود، لا يرى الباطن والملكوت. فتجليات اسماء الحق لا تظهر لقلب السالك إلّا عندما يؤمن أنه لا مؤثر في الكائنات سوى الله ويحصل له اليقين في الآية:

﴿ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾[1].

هنا يتركز الاهتمام في صاحب الأمر فهذا الآخذ بأرواحنا، القابض لها. والأمر لا ينسحب علينا فقط بل في شأن جميع الموجودات. أمعن في رأي سماحة آية الله جلال الدين الآشتياني في هذا الخصوص، حيث يؤكد أن حقائق العالم تنكشف عندما تضمحل نسبة الاعتبارية بين الخالق والمخلوق ويتلاشى غبار الغيرية وتنجلي عن نظر السالك ستار الغيرية والاستار الناشئة عن الوهم والخيال المانع عن شهود الجمال المطلق، فيظهر المرئي. ومن الأغيار (والقول للآشتياني) هو الوجود المجازي للسالك ذاته حيث قيل في شأنه:

«وجودك ذنب لا يقاس به ذنب».

ونعم ما قيل:

سوف ترى إذا انجلى غبارٌ أفرسٌ تحتك أم حمارٌ

---

١ ـ سورة هود، الآية ٥٦.

وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[١].

وفيه أيضاً:

﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[٢].

ثم أمل التفكير في الحديث الشريف التالي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ان داود ورث علم الأنبياء، وان سليمان ورث داود، وأن محمد صلى الله عليه وآله ورث سليمان، وإنا ورثنا محمداً صلى الله عليه وآله. وان عندنا صحف ابراهيم وألواح موسى».

فقال أبو بصير: ان هذا لهو العلم.

فقال: يا أبا محمد! ليس هذا هو العلم. إنما العلم ما يحدث بالليل والنهار، يوماً بيوم وساعة بساعة»[٣].

ربما يكون المقصود من هذا العلم المتزايد على مر الأيام بل ساعة بساعة هو إدراك تجلي أسماء الحق تعالى وأفعاله. والعارف يسكن مدرستها فتتسع دائرة علومه فيها لحظة بعد لحظة. وبالنظر لقول العرفاء في أنه لا تكرار في تجلي الحق، تضيف كل من تجلياته صفحة جديدة إلى كتاب معرفة العارف. وربما لمثل هذه المعرفة المتجددة وما تحمله إلى الإنسان من شعور إزاء انطباعاته السابقة يعود استغفار

١ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٢ـ سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٣ـ كتاب الكافي، المجلد ١، كتاب الحجة».

رسول الله ﷺ والائمة الأطهار عليهم السلام، إذ يقول تعالىٰ:

﴿بل هم في لَبس من خلق جديد﴾[1].

١ ـ سورة ق، الآية ١٥.

«تجلى الله في الجنة»

جاء في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام:

إن لله عز وجل كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة، فإذا كان يوم الجمعة، بعث الله الى المؤمن ملكاً معه حلتان، فينتهي إلى باب الجنة. فيقول: استأذنوا لي على فلان، فيقال له: هذا رسول ربك على الباب. فيقول لأزواجه: أي شيء ترين عليّ أحسن؟ فيقلن: يا سيدنا! والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا الذي قد بعث إليك ربك. فيتزر بواحدة ويتعطَّف بالأخرى، فلا يمر بشيء إلّا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد.

فاذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالىٰ. فإذا نظروا إليه، أي إلى رحمته، خرّوا سجداً. فيقول: عبادي ارفعوا رؤوسكم. ليس هذا يوم سجود ولا عبادة. قد رفعت عنكم المؤونة.

فيقولون: ياربنا! وأي شيء أفضل مما أعطيتنا؟ أعطيتنا الجنة.

فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرة.

فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفاً مثل ما في يديه. وهو قوله: ﴿ولدينا مزيد﴾[1].

ما قرأته في هذا الحديث الشريف هو نفحة من تجليات ذلك العالم. فاعلم ان دور تلك التجليات في ظهور الحق تعالى قياساً إلى دور تجليات هذا العالم هو كانبعاث الضوء من الشمس قياساً إلى انبعاثه من القمر. ففي تجليات عالم المادة تظهر الأسماء من وراء كسوف المادة وعالم الخلق الأظلم بينما تزول في ذلك العالم جميع الحجب فيما عدا حجابي الجمال والجلال المسميين بـ«الحجب النورانية».

فالمتبصر الذي شغف حباً في هذه الدنيا بنفس هذا المحبوب يُكشف النقاب عن بصيرته في يوم القيامة وإلّا:

﴿من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمىٰ واضل سبيلاً﴾[2].

---

١ ـ تفسير «الميزان»، الجزء ٢١، ص ٢٧٥، ذيل الآية ٣٠ من سورة السجدة.

٢ ـ سورة الإسراء، الآية ٧٢.

«آيات وروايات عرضت لمفهوم التجلي»

قال تعالى:

﴿فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكاً وخر موسىٰ صعقاً﴾[1].

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون»[2].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«فتجلى سبحانه لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما آراهم من قدرته»[3].

كما قال عليه السلام:

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

٢ ـ أبو طالب المكي، قوة القلوب، ج ١، ص ١٠٠؛ والشيخ البهائي، الكشكول، ص ٦٢٥.

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٤٥.

«تجلىٰ صانعها للعقول»[١].

وعنه أيضاً:

«الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[٢].

والأكثر روعة من كل هذه الروايات ما رد به أمير المؤمنين علي عليه السلام على سؤال أحد الرهبان عما هو وجه الله، فقال:

«فهذا الوجود كله وجه الله»[٣].

ثم قرأ: ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾.

فما من شيء في هذا الوجود إلّا وكان النظر فيه سبيلاً للنظر إلى وجه الله ونحن نبحث عن الله في غفلة من كل هذا.

يقول الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام:

«إن الاحتجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم فأما هو فلا يُخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار»[٤].

ونقرأ عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام:

«إنك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك»[٥].

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٨٤.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

٣ ـ جامع الأسرار للسيد حيدر الآملي.

٤ ـ كتاب «التوحيد».

٥ ـ من دعاء أبي حمزة الثمالي.

«مراتب التجلي»

قسمت تجليات حضرة رب العزة والجلال إلى أربعة أنماط:

التجلي الأول:

وهو تجلي الذات ويكون تجلي الذات للذات فقط ويسمىٰ هذا التجلي بمسميات أخرى أيضاً مثل: الغيب المصون، الكنز المكنون، غيب الغيوب ومرتبة العماء.

التجلي الثاني:

وهو تجلي الفيض الأقدس، ودافعه انبثاق الجود المطلق.

التجلي الثالث والرابع:

وهو تجلي تلك الذات الكريمة في هيئة أسماء وأفعال وصفات.

وعز الدين محمود الكاشاني يحدد التجليات بأنها ثلاثة: تجلي الذات، وتجلي الصفات وتجلي الأفعال.

لابد من الالتفات الى أن عالم الوجود بأسره هو أساساً مسرح لتجليات الله، فإنها تتلبس أحياناً بالأسماء وأحياناً بالصفات وأخرى بالأفعال، ففيض حضرته متواصل في عالم الوجود:

«يا دائم الفضل على البرية».

وهذا الفيض يتجلىٰ في مظاهره المختلفة. فأشعة الشمس مثلاً تنعكس من المرآة الملونة مصطبغة بلون المرآة بينما هي نفس ذلك الضوء عموماً.

ومثال آخر: حركة البحار في مظهر الأمواج المختلفة وايجاد الفقاعات والرغوة، فكلها في الحقيقة مظاهر لنفس ذلك البحر وهذا التشبيه يعتبره الإمام الخميني ﷺ أقرب التشبيهات[1].

وتشبيه آخر يستند إليه العرفاء هو تجلي الماء في بستان يعج بالورود والرياحين والثمار المختلفة. فمع أنه لكل ثمرة مذاق معين ولكل ورقة شكل خاص ولكل وردة لون يتعلق بها، مع ذلك، كلها تقوم بقيام الماء وتظهر بفعل تنعمها من هذه المادة الحيوية. وهذا التشبيه يستخدمه الشاعر «هاتف اصفهاني» في قطعة شعرية له جاء في أحد أبياتها:

ز آب بی رنگ صد هزاران رنگ

لاله و گل نگر در این گلزار[2]

---

١ ـ انظر تفسير سورة الحمد للإمام الخميني (قده).

٢ ـ معناه:

ويرى العرفاء أن الحقيقة الواحدة التي يسمونها «الوجود المنبسط» هي تجلي ذات الحق تعالى في عالم الأعيان ويدعونها «نَفَس الرحمن» وابن عربي يكتب في كتاب «فصوص الحكم»:

«العالم ظَهَر في نَفَس الرحمن».

ويشرح القيصري هذه العبارة بأن نفس الرحمن هو انبساط الوجود على الأعيان.

ولابن تركه في كتاب «تمهيد القواعد» كلام رائع حول هذا الموضوع حيث يشبِّه أصالة الوحدة في عالم الكثرة بتكون اللغات المختلفة من تركيب حروف ملايين الألفاظ والكلمات والتي تتكون بحد ذاتها، من مصدر واحد هو النَفَس المنبعث من القفص الصدري. فيقول بان «منشأ انبعاث الحروف الهوائية هو القفص الصدري.. في هذه المرحلة تكون الحروف جميعاً غير ذات صبغة معينة بل تتسم بالوحدة. وفي المرحلة الثانية ينبعث الصوت من القفص الصدري نحو مجال الفم، قبل اتصاله بمخارج الحروف. وفي المرحلة الثالثة يضع النَفَس (الزفير) الحروف الأبجدية بواسطة مخارج الحروف. هنا، يكتسب غير ذي الصبغة، صبغات متميزة. وبتداخل الحروف تتكون ملايين الكلمات في مختلف اللغات.. وهذا بحد ذاته هو صورة لظهور

← ـ «من الماء الشفاف (تترشح) مئات آلاف الألوان، فانظر إلى التوليب والورد في هذه الروضة».

الوحدة في عالم الكثرة». وهذا التشبيه أخذه ابن عربي بالحسبان في ابتكار عبارة «نَفَس الرحمن».

﴿وما أمرنا إلّا واحدة﴾[1].

١ ـ سورة القمر، الآية ٥٠.

«النبي محمد (ص) مظهر جميع الصفات وتجلي كل أسماء الحق تعالىٰ»

الآن وقد تعرفت على تجليات اسماء الحق تعالىٰ وصفاته، والتفت إلى أن كل موجودٍ هو مظهر اسم من أسماء الباري تعالى وصفة من صفاته، إعلم أن المظهر الذي تجلىٰ به حضرة «الباطن» في عالم الوجود وأودع فيه جميع أسماء الحق الحسنى هو وجود خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وهو المعني في قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[1]. فمعرفة اسماء الحق كلها لا تحصل إلّا بالتعرف عليه وإدراك معرفته. وحري بهذا البحث أن ننقل فيه نص كلام العارف والفيلسوف الكبير الملا عبد الله الزنوزي، فبعد اثباته بأن رؤية الحقيقة الجامعة إنما تتلخص في رؤية خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وإشارته إلى الحديث الشريف: «أوتيت جوامع الكلم»، يؤكد بأنه هذا هو معنى

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣٠.

كلامه ﷺ:

«من رآني رأى الحق».

ثم يردف:

الكلمات الجامعة هي الكلمات الوجودية، حيث جاء في الصحيفة الالهية:

﴿لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً﴾[1].

فمن المؤكد أن ذاته المقدسة تمثل المرتبة الجامعة لحقائق الكائنات وجميع مخلوقات عالم الامكان. ولهذا قال ﷺ: «اوتيت جوامع الكلم». وخلاصة الكلام هي انه لمّا كانت ذاته المقدسة أشرف مخلوقات عالم الامكان وأكملها، كان هو الأساس في الانطلاقة البدائية وكذلك في الحركة الختامية. فإلى الجهة الأولى يشير كلامه «أول ما خلق الله نوري» وإلى الجهة الثانية ما جاء في الصحيفة الالهية ﴿فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى»[2].

إذاً تمثل مشاهدة تلك الحقيقة الجامعة والرحمة الواسعة منتهى مراتب شهود الحق (جل وعلا) وانكشافه وأرقى درجات التوحيد ومعرفة الذات المقدسة للمُبدىء الأعلى. وإلى هذه المرتبة التوحيدية يشير الحديث الباهر لخاتم الأنبياء عليه آلاف التحية والثناء: «لو كُشف

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ١٠٩.

٢ ـ سورة النجم، الآيتان ٨ و ٩.

الغطاء ما ازددت يقيناً».

فهذا الحديث البديع ينوّه لكمال القرب وهو ما يُـعبَّر عـنه بـعبارة «الفناء في التوحيد» و «موتوا قبل ان تموتوا» ومقام «بك عرفتك» و «عرفت الله بالله»[1].

---

١ ـ الملا عبد الله الزنوزي، كتاب «الانوار الجلية»، ص ٩٠.

«الخلق الجديد»

الآن وقد استوعبت شؤون التجلي ومراتبه وحصلت لديك إلى حد ما معرفة بنمط ارتباط الممكنات مع واجب الوجـود، اعـلم ان هـذا الارتباط متواصل مع الحق وفيضه، فهو كنبع فيض متواصل الفيضان، وهذا الفيضان يؤوب على مر اللحظات إلى نبعه فيتلوه فيضان آخـر. من هنا لا يكون عالم الوجود على حال واحدة ولو للـحظتين فـقط ولكن سرعة الفيضان تجعلك تتصور هذه التتاليات على أنـها فـيض واحد كما تحرك جمرة نار بيدك حركة دورانـية سـريعة فـيتصورها الناظر إليك من بعيد دائرة.

من هنا، فان عالم الوجود بأسره يعمّه على مـر اللـحظات فـيض متواصل من حضرة الحق تعالىٰ. بعبارة أخرىٰ يمر عالم الوجود فـي كل لحظة بخلق جديد كما في ارتباط الصـور المـتعددة فـي أفـلام الكارتون عند عرضها بـتتال سـريع. خـذ فـي الحسـبان أن جـميع الممكنات معدومة بذاتها تستمد الحـياة لحـظة فـلحظة مـن حـضرة الوجود المطلق ثم يتبع حياتها الموت وتتلوه حياة أخـرىٰ. ولتـدرك

ذلك بشكل أوضح أمعن في حياتك وهي معلولة نشاط قلبك الذي يواصل استئناف العمل بعد سكون حوالى (٨٠) مرة في كل دقيقة. فتتجلى فيه حقيقة الموت والعودة إلى الحياة من جديد وإلّا فسوف يكون الموت حتمياً. وإشارة إلى ذلك يقول تعالى:

﴿إن يشأ يُذهبكم ويأتِ بخلق جديد﴾[1].

ويشرح الشيخ عبد الرزاق الكاشاني مفهوم الخلق الجديد على أنه:

«هو اتصال الوجود بين النفس الرحمن في كل ممكن لانعدامه بذاته مع قطع النظر عن موجده وفيضان الوجود عليه منه على التوالي حتى يكون في كل آن خلقاً جديداً لاختلاف نسبة الوجود إليه مع الآفات واستمرار عدمه في ذاته»[2].

وكان هرقليط يقول:

«لم أسبح في أي نهر مرتين».

وكان أجدر به أن يقول: «لم أنظر في أي نهر مرتين»، فانك إن أشحت نظرك عن النهر للحظة واحدة لا يعود النهر خلال نظرتك التالية نفس ذاك النهر. هكذا هو فيضان الحياة في الموجودات.

ولنا أن نقول أن حضرة الرحمن يؤثر باستمرار في عالم الوجود من خلال تجلي اسمي «المحيي» و «المميت». فكل موجود متواصل الخلع واللبس، يخلع ما عليه من رداء ويلبس آخر من الفيض

---

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ١٩؛ وسورة فاطر، الآية ١٦.

٢ ـ كتاب المصطلحات للشيخ عبد الرزاق الكاشاني.

الوجودي الجديد.

أنت تعلم أن جسمك يشهد عملية موت متواصلة، ولكن عملية ولادة الخلايا البديلة هي الأخرى متواصلة.. فجسمك بين رواح هذه واستبدالها بتلك وانت تتصوره ثابتاً. إنه سر تشهده بنفسك في خلايا شعرك وأظافرك. فإنك كلما قصرتها وشذبتها تتولد بدائل لما ذهب منها وأنت يخيل إليك أن هذا الإظفر أو هذا الشعر هو نفس ذاك.

هذا ما يستوحيه العرفاء من الآيات:

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾[١].

و ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾[٢].

و ﴿على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون﴾[٣].

فيا أيها العزيز! انك عندما ترى المصابيح مضاءة في المدينة والثلاجات تواصل التبريد، والمكواة تكوي الملابس والمروحة تحرّك الهواء لا يبقىٰ لديك أدنى شك بأنها آثار عمل مولدات كهرباء المدينة وبأن أثرها متواصل مع كل فيض (دورة من دورات التُرُس). إقض ساعة من وقتك وأنت تفكر فيما إذا يكون بالامكان حصول كل هذه الآثار والأعمال والظهور والخفاء والمجيء والرواح والحركات دون قدرة خالق واحد يؤثر فيها من وراء حجب عالم الملك؟! ما أعبثه من

---

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ١٩ و سورة فاطر، الآية ١٦.

٢ ـ سورة ق، الآية ١٥.

٣ ـ سورة الواقعة، الآية ٦١.

تفكير!

ولحسين الخوارزمي كلام في شرح عبارة «ولا يشعرون لما هم عليه وهؤلاء هم في لبس من خلق جديد» من كتاب «الفصوص» حيث يقول:

«هؤلاء المحجوبون لا يشعرون بما هم عليه من تحول وتقلب من حال إلى حال وبأن أعيانهم أعراض متبدلة في كل لحظة وآن، وأن الحق تعالى يلبسهم هيئة جديدة في كل زمان.. ولكن هذا الخلق المتجدد يستتر عليهم..»[1]

تصور العالم كأنه فانوس دائم الفناء والتجديد ولكن ضوءه ثابت، فإن انقطع استمداده من النفط للحظة ينطفىء ضؤوه، فكل قطرة ترد فتيلتها في أية لحظة، هي غير قطرة اللحظة الفائتة، والضوء المنبعث منها كذلك هو غير الضوء السابق.

الايجاد، إذاً، هو تجل للوحدة في الكثرة، والفناء هو عودة الكثرة إلى الوحدة وإلى ذلك يشير قوله تعالى:

﴿ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير﴾[2].

فالموجودات كلها في حركة دؤوبة، كلها مندفعة للإياب ولكنها حركة متواصلة لا تتمكن الحواس من استشعارها. هذا ما تذكره الآية:

---

١ ـ انظر «شرح فصوص الحكم» للخوارزمي، الفص الشعيبي.

٢ ـ سورة النور، الآية ٤٢.

﴿وترىٰ الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾[1].

ويسمىٰ هذا التجلي «النفس الرحماني»، فأنت إن شئت انظر إليه في مظهر اسم «المحيي» و «المميت» أو في مظهر «الباسط» و «القابض» أو في مظاهر «الجمال» و «الجلال» المتجلية باستمرار في عالم الوجود فإنها تلبس الماهيات في كل لحظة كسوة جديدة وتلونها بصبغة أخرى غير ما كانت عليها في اللحظة السابقة. فإن كان لك قلب طاهر فلا تتخذن له محبوباً سواه.

---

١ ـ سورة النمل، الآية ٨٨.

«الاستنتاج»

صار في علمك بأن جميع موجودات العالم تتأرجح لحظة فلحظة ما بين الوجود والعدم.. فإن لم تحصل على فيض الوجود يؤول أمرها كلها إلى الفناء في العدم.. ما عليك إلّا أن تنسىٰ كل مظاهر العدم وتجلياته وتنظر إلى مُوجِدها فلا حاصل من النظر إلى العدم إلّا الفناء. انظر إلى اليد التي يسترسل العالم بين أصابعها، حركته الدائمية بين مظهري الوجود والعدم

﴿بيده ملكوت كل شيء﴾[1].

ونجد الإمام الحسين بن علي عليه السلام يتضرع إلى الله تعالىٰ في دعاء «عرفة» العظيم بأن:

«إلهي! أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني بكسوة الأنوار».

وهذا الحديث يوحي إلينا بأن النظر إلى شيء مضاء ليس ذا أهمية تذكر. هنيئاً لمن يرى المضيء من خلاله.

ولك أن تحصل علىٰ هذه المعرفة من الفقرة التالية من دعاء الإمام

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٨٨.

علي عليه السلام:

«إلهي! كيف استعز وفي الذلة أركزتني أم كيف لا استعز وإليك نسبتني.

إلهي كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقراء أقمتني أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني»[1].

---

١ ـ نهج البلاغة.

«التكبير»

لما انساق على لسانك تكبير الحق تعالىٰ، فافهم أن التكبير لا يعني أن الله أكبر من مخلوقاته. فالممكنات لا تملك إلّا الفقر التام والأفضلية نسبة تتخذ بين شيئين لأحدهما قدراً أكبر من الشيء أو الحالة محل القياس. أما عندما يعود الوجود كله إليه ولا شيء وراء الوجود إلّا العدم لا يقول أحد: الوجود أكبر من العدم.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«كان الله ولم يكن معه شيء والآن كما كان»[1].

فمعنى التكبير هو أن تلك الذات الكريمة أسمىٰ وأعلى شأناً من أن يستوعبها عقل الإنسان ويدركها.. فها هو أشرف الخلق، فمع أنه اخترق في قربه من حضرة الباريء تعالى مقام «قاب قوسين» وبلغ «أو أدنىٰ» يقول:

«ما عرفناك حق معرفتك».

---

١ ـ ميزان الحكمة، المجلد ٦.

بتفهم مثل هذه الحقيقة يغدو موقفنا واضحاً. وقد أكد الإمام علي عليه السلام أن ما نفكر به حول الله تعالىٰ إنما هو من اختلاق أذهاننا لا خالقنا.

فتلك الذات المقدسة هي في مرتبة العماء والجفاء ولا سبيل لعقل الإنسان لإدراكها إدراكاً تاماً. واعلم كذلك أن العالِم محيط بمعلومه والله تعالى يحيط علماً بجميع مخلوقاته وأحد أسمائه «المحيط». فكيف يتسنى للمحاط أن يحيط بمحيطه؟! إننا نتعرف على كل موصوف بصفته وعلى كل مسمىٰ باسمه، فكيف للعارف أن يعرف تلك الذات الكريمة وهي المتجردة عن كل اسم وصفة؟! حيث أن:

«كمال الإخلاص نفي الصفات عنه».

غني عن الايضاح أن كل صفة هي غير الموصوف وكل اسم غير المسمى وبالتالي فإن تلك الوحدة المحضة يسقط عنها كل اسم وصفة.

الآن وقد عرفت معنى التكبير ينبغي لك وأنت تعتزم على ترديد التكبير أن يكون تكبيرك على ما جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«... فإذا كَبَّرْتَ فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فإن الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يُكبِّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره، فقال: يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولا حجبنك عن قربي والمُسارّة

بمناجاتي»[١].

واعلمن أنك عندما تريد أن تتعرف على تلك الذات المقدسة حتى في إطار تجلي الأسماء، فإنك عاجز عن الوصول إلى حقيقة معرفة أسمائه. فأنت في حال النظر في حضرة «الكريم» تتذكر كرم حاتم الطائي مثلاً وتتكون عندك فكرة بان كرم الله يتجاوز كرم حاتم.. ولما تنظر في حضرة «الرحيم» تعيد ذكرى حنان أمك وأن رحمة الله ورأفته بك أكبر من حنان أمك بينما حقيقة كرم الله ورحمته أمر لا يرقى إليه ما تنسجه تصوراتنا.

ولما تعذر على الإنسان الالتفات بدقة تامة إلى أعماق أسرار أيٍّ من المخلوقات سواء صغيرها وكبيرها، واحتجبت عنه الحقائق التامة ولم يكشفها لا في خلق خلية من روقة شجرة أو أي كائن حي ولا فيما يرتبط بعظمة المجرات وأسرارها وقدمها، فكيف يرنو لمعرفة ذات خالقها المتجردة عن الصفات؟!

وربما يكون المقصود من رفع اليدين إلى محاذاة الأذنين أثناء التكبير هو الإشارة إلى نبذ ما سوى الله إلى الوراء لتدرك نفسك عظمة حضرة الحق مع إذعان قلبك ولسانك لذلك. فأنت تشير إلى النفي بدفع يديك إلى الوراء وإلى الاثبات بإعادتهما إلى الأمام. وهذا هو مفهوم عبارة «لا إله إلّا الله».

وأعظم التكبير هو نفي الوجود عن نفسك وتناسيها والتسليم لله.

---

١ ـ مصباح الشريعة.

فجميع الخيالات والتصورات والأوهام هي من عند النفس. فأنت إن نبذتها واكتسحتها تتخلص بذلك من كل هذه الأمور، ويتجلى الله ـ وهو الحق المحض ـ في نفسك:

﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾[1].

ويرى الشيخ الأكبر أن أفضل الصلوات تؤدى عندما لا تكون أنت فيها. وهذا هو ما ذهبنا إليه في كلامنا آنفاً، أو أن تستضئل قدرك وتذعن بتدنسها وأن الله منّ عليك إذ أذن لك بان تكبره وتدخل في حرمه وأنت على هذه الحال من ضآلة الشأن والدنس. من هنا، كان من المستحب أن تعقب التكبيرات المستحبة في الصلاة بقراءة هذا الدعاء:

«اللهم أنت الملك الحق لا إله إلّا أنت سبحانك إني عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت»[2].

ما تلاحظه في هذا الدعاء كله هو اثبات جمال الحق تعالى وجلاله وعجز النفس عن إدراكه:

﴿ولا يحيطون به علماً* وعنت الوجوه للحي القيوم﴾[3].

وللشيخ الرئيس كلام رائع في هذا الخصوص حيث يقول:

«الله تعالى لا برهان عليه بل هو برهان على كل شيء وإنما عليه

---

١ ـ سورة الحج، الآية ٦٢.

٢ ـ مفاتيح الجنان، تعقيبات الصلاة.

٣ ـ سورة طه، الآيتان ١١٠ و ١١١.

دلائل واضحة».

أما الفيلسوف الكبير «ميرداماد» فإنه يقول:

وهو كل الوجود وكله وجودٌ وكل البهاء والكمال وكله البهاء والكمال وما سواه على الإطلاق لمعات نوره ورشحات وجوده وظلال ذاته، وإن كل هويته من نور هويته فهو الهو المطلق ولا هو على الإطلاق إلّا هو»[1].

وهذا هو حقيقة ذكر «الخضرية» الذي ذكرته لك مسبقاً:

«يا هو يا من لا هو إلّا هو».

ويقول تعالىٰ:

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرِك الأبصار﴾[2].

ونقرأ في أحد الأحاديث الشريفة:

«إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار».

فلنعرج على نهج البلاغة ونقرأ فيه ما جاء في هذا السياق عن الإمام علي عليه السلام:

«كل مسمى بالوحدة غيره قليل وكل عزيز غيره ذليل وكل قوي غيره ضعيف وكل مالك غيره مملوك وكل عالم غيره متعلم وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر»[3].

---

١ ـ انظر كتاب «التقدّسيات».

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٦٣.

إذاً أقصِ عن بالك هوس رؤيته بالعين وإدراكه بالعقل ولكن هذا لا يعني أن تدير وجهك عن هذا الاتجاه؟ فإنك إن عجزت عن معرفة ذاته لا تسلب نفسك نعمة معرفة صفاته. فإننا وإن كنا نجهل ماذا يـحدث بالفعل في الشمس ولكننا ننعم جميعاً بضوئها وطاقتها. من هنا، عليك في هذه الحضرة إبداء العبودية فواجبنا لا يتعدى هذا. فكل ما يـناله العباد من نصيب من معرفته إنما يستحصل في ظل العبودية لا غير.

«العبودية»

ايها العزيز! في محطة التسبيح التفت إلى أنه منزه من كل عيب ونقص، وفي وقفتنا مع التحميد إلى أنه مزين بجميع الصفات والأسماء الحسنى وأن كماله وجلاله وجماله يفوق كل كما وجلال وجمال، وعند عرضنا للتهليل إلى انه ليس في عالم الوجود موجود فعال ومدبر وجدير بالألوهية والافتتان والهيمنة سواه هو، وفي بحث التكبير إلى عظمة تلك الذات المقدسة وجلالها وهي المتجردة عن كل اسم ورسم.

وإزاء كل هذا الحسن والجلال والبهاء والنور والعظمة ماذا يسعنا أن نفعل إلّا أن نسلك درب العبودية خاشعين ونلتزم بحبه متيمين؟ فان سلكت هذا الطريق، اعلم انك تستظل أبد الدهر بظل إشعاعات هذه العظمة. أما لو أدرت ظهرك لهذا الطريق، فما أتعسك! سوف يستدرجك غراب الضلال المنحوس إلى جحر الشيطان الملعون.

إن الطريق الرئيسي الى العبودية يمُّر من بستان كلما توغلت فيه أكثر يزداد انتعاش مشام نفسك بأزهار جواذبه العبقة، وإلى جانبي

الطريق أنهار ينسجم رنين أمواجها مع لحن أذكارك وترددها في حنجرتك. طيور أشجارها الغناء تتغنى بلحن أنشودة الحب الرائعة. وفي نهاية هذا الطريق تسطع أنوار شمس تزداد قرباً منها بمضيك من كل منزل تجتازه، فيشع في طريقك نور أعظم حتى تبلغ منزل: ﴿مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[١]. فيتم استقبالك فيه بترنيمة:﴿يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[٢] المنعشة.

أما درب الضلال المعتم النائي عن مصدر السعادة فلا يزال صدى الغربان المشؤوم يقلقل فيه مسامع روحك على مر اللحظات، تشق طريقك فيه بين أشواك وثعابين. وما تلمح على جانبيه إلّا اشجاراً جاء وصفها في الآية:

﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾[٣].

إنه ديار الوحشة تتخرش فيه قدماك بسيرك بين الأحجار والأشواك وطريق لجوئك وعودتك إلى الطاغوت يزداد ظلمة وعتمة مع كل خطوة تتقدم بها إلى الأمام. فصاحب هذه القافلة لا شغل له إلّا أن: ﴿يخرجهم من النور إلى الظلمات﴾[٤]، ولا مصير للسائر في هذا المسلك

---

١ ـ سورة القمر، الآية ٥٥.

٢ ـ سورة الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

٣ ـ سورة الصافات، الآيتان ٦٤ و ٦٥.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

الداجي إلى التهاوي في وادٍ يفترش:

﴿ناراً تلظى لا يصلاها إلّا الأشقىٰ﴾[١].

فها أنت تواجه ربك وأنت على مفترق طرق ولك الخيار فيما تختار.

كلامنا كان في عبودية الرب وهو أسمى المدارج وأرقى المنازل مما حدا بالباحثين بأن يفسروا تقدم لفظة «عبد» على لفظة «الرسول» في عبارة التشهد: «أشهد أن محمداً عبده ورسوله» بأنه للدلالة على أن العبودية هي التي منحت خاتم الأنبياء ﷺ جدارة التشرف بمنزلة الرسالة.

وها هو أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام يقول في مناجاته:

«الهي! كفىٰ بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً»[٢].

وحقيقة العبودية هي أن لا تنظر إلّا إليه ولا تطلب إلّا طاعته ولا تتقص إلّا رضاه وأن تجهد باستمرار عساك أن تكسب رضا المولى:

﴿إن صلاتي ونُسكي ومحيايِ ومماتي لله رب العالمين﴾[٣].

---

١ ـ سورة الليل، الآيتان ١٤ و ١٥.

٢ ـ مفاتيح الجنان.

٣ ـ سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

«نهج العبودية»

عن عنوان البصري[1] ـ وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة ـ قال:

كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما حضر جعفر الصادق عليه السلام المدينة، اختلفت إليه وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً:

ـ اني رجل مطلوب، ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي. فخذ عن مالك واختلف إليه كما كنت تختلف إليه.

فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده، وقلت في نفسي: لو تفرس فيّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه. فدخلت مسجد الرسول، وسلمت عليه، ثم رجعت من الغد إلى الروضة، وصليت فيها ركعتين، وقلت: أسألك يا الله، يا الله أن تعطف علي قلب جعفر وترزقني من علمه ما اهتدي به إلى صراطك المستقيم. ورجعت إلى

---

١ ـ مشكاة الأنوار، ص ٢٢٧.

داري مغتماً حزيناً، ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما اشرب قلبي من حب جعفر. فما خرجت من داري إلّا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري. فلما ضاق صدري تنعلت وترديت، وقصدت جعفراً. وكان بعد ما صليت العصر، فلما حضرت باب داره، استأذنت عليه، فخرج خادم له. فقال: ما حاجتك؟

فقلت:

السلام على الشريف.

فقال: هو قائم في مصلاه.

فجلست بحذاء بابه. فلما لبثت إلّا يسيراً إذ خرج خادم له.

قال: ادخل على بركة الله.

فدخلت، وسلمت عليه، فردّ علي السلام. وقال: اجلس غفر الله لك.

فجلست، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: أبو من؟

قلت: ابو عبد الله.

قال: ثبت الله كنيتك، ووفقك لمرضاته.

قلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم عليه غير هذا الدعاء لكان كثيراً.

ثم اطرق ملياً ثم رفع رأسه، فقال: يا ابا عبد الله، ما حاجتك؟

قلت: سألت الله أن يعطف قلبك علي ويرزقني من علمك، وأرجو ان الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته.

فقال: يا ابا عبد الله، ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من

يريد الله تبارك وتعالى أن يبديه. فان اردت العلم فاطلب أولاً من نفسك حقيقة العبودية. واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك.

قلت: يا شريف.

فقال: قل يا ابا عبد الله.

قلت: يا ابا عبد الله! ما حقيقة العبودية؟

قال: ثلاثة أشياء:

- ان لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله إليه ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك. ويرون المال، مال الله يضعونه حيث أمرهم الله تعالى به،

- ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه،

- فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً، هان عليه الانفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس. فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هان عليه الدنيا وابليس والخلق. ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً. ولا يطلب عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيامه باطلاً. فهذا أول درجة المتقين. قال الله تعالى:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً

والعاقبة للمتقين﴾[١].

***

هذا هو نهج العبودية الذي حدده لنا الإمام الصادق عليه السلام.

فيا أيها العزيز ما دام هو (الله) مولاك الحقيقي فلا يشهد القلب نبضاً، ولا صدرك شهيقاً وزفيراً، ولا لسانك وأذنيك كلاماً وسماعاً، ولا قدماك خطى إلّا به ولم تجلس إلى مائدة إلّا من فضله، واينما تحل وتقوم ثَمَّ وجهه. فهل يليق بك أن تتنكر لعبودية مثل هذا المولىٰ؟!

فأينما توجه اتجاهك ما ترى إلّا عباده ومخلوقاته. والعبودية لا تصح إلّا للمولى وليس لعباد ألجمتهم قيود العبودية.

يقول سهل التستري بأنه اشترى غلاماً فجاء به إلى داره. سأله عما يُسمىٰ، فقال ما شاء أن يدعوه به، ثم سأله عما يرتدي، فأجاب ما يأتيه به، ثم عما يأكل فقال ما يقدمه له، ثم عما يطلب فأجاب متسائلاً: وهل للعبد أن يطلب؟ هكذا عقد التستري عزمه أن يتعلم نهج العبودية من غلامه.

فمن لم يقوّم أموره بقيود عبودية الله وقع في شراك ألف عفريت وعفريت:

﴿أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار﴾[٢].

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٨٣.

٢ ـ سورة يوسف، الآية ٣٩.

فيا عزيز النفس! إنه لغني عن عبوديتنا. فإن كان قد فتح أبواب العبودية بوجهنا فليغدق العطاء على فقراء دياره، وليوفقنا للسكنىٰ في حرمه. فهل لنا أن نرفض دعوته تغنجاً؟

«فاتقوا الله الذي نفعكم بموعظته، ووعظكم برسالته، وامتنّ عليكم بنعمته فعبّدوا أنفسكم لعبادته، وأخرجوا إليه من حق طاعته»[١].

هل ترغب أن يعرض عليك مولاك رمزاً آخر من نهج العبودية لتفهم الحقيقة، وتسارع خطاك نحو قرب حضرته؟! استمع إلى خطاب ربك وهو يحدث أقرب خلقه إليه في ليلة المعراج:

«يا أحمد هل تدري متى يكون العبد عابداً؟

قال: لا يارب،

قال: إذا اجتمع فيه سبع خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وصمت يكفّه عما لا يعنيه، وخوف يزداد كل يوم من بكائه، وحياء يستحي منه في الخلاء وأكْلُ ما لابد منه، ويبغض الدنيا لبغضي لها، ويحب الأخيار لحبّي إياهم»[٢].

***

كان هذا منهاجاً آخر من مناهج العبودية.

دعني أسهل عليك الأمر: كنت في ريعان الشباب عندما انطلقت

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

٢ ـ ارشاد القلوب للديلمي، الباب الخامس في معراج النبي (ص).

أطلب رجلاً من أهل العبادة، فساقتني نور الهداية الربانية وأنا في مدينة همدان إلى التشرف بلقاء عارف الزمان فيها، الحاج جواد الأنصاري (قده) ذات يوم كشفت له عن سري وأنا في منتهى الحاجة فارسلت دموعي وأنا أسأله: سيدي! ما هو الطريق إلى الوقوف في عرصة الإنسانية الحقيقية؟ وضعت رأسي في حجره وقبلت قدمه. مرت دقائق وأنا على هذه الحال من الهياج ثم رفع رأسي ووضع يده على قلبي وترنم بدعاء لم أعرف ما هو. ثم قال: التحلي بالإنسانية أمر في منتهى البساطة. انظر عمّا نهاك ربك فارتدع عنه، وبما أمرك فالتزم به فإنك بذلك تحسن الانقياد لأمر عبوديته وتبلغ مقام أحبائه لديه. ثم أردف يقول: أن أسمى مقام للعبد هو مقام لقاء الله وقد وضع الله شرطين لبلوغه هما العمل الصالح والتحرر من الأفكار الإلحادية.

قال تعالى:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1].

فيا ايها العزيز! إن أردت التزام نهج العبودية، فهذا هو مولاك. إن ضيّق الفقر عليك الخناق فهذا منزل الغنى، وإن كان لك قلب طاهر فهذا هو الفاتن.. ولكن هذا الفاتن لا يدعو إليه إلّا المحبين الحقيقيين.

جاء في حديث قدسي:

«يا ابن آدم! أنا حي لا أموت، أطعني فيما أمرتك حتى أجعلك حياً

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ١١٠.

لا تموت. يابن آدم أنا أقول للشي كن فيكون، أطعني فيما أمرتك حتى أجعلك تقول للشيء كن فيكون»[١] بهذا ينكشف لك مفهوم حديث الإمام الصادق عليه السلام:

«العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية وما خفي عن الربوبية أصيب في العبودية»[٢].

فلما استوعب العبد حقيقة وجود مولاه في كل مكان والتفت إلى عظمته وجماله وجلاله، لا يرفع نظره عنه بعد ذلك قط، ولا يفعل إلّا ما أمره به ولا ينطق إلّا بحمده:

يقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام:

«لا يكون العبد عابداً لله حق عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه، فحينئذ يقول: هذا خالص لي فيقبله بكرمه»[٣].

وهذا المقام هو أعظم نعمة يغدق بها الله على عباده.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما أنعم الله على عبد أجلّ من ان لا يكون في قلبه مع الله غيره»[٤].

يرى محيي الدين ابن عربي (الشيخ الأكبر) أن تقدم النبي داود عليه السلام

---

١ ـ مستدرك الوسائل.

٢ ـ مصباح الشريعة.

٣ ـ تفسير الإمام الحسن العسكري (ع).

٤ ـ بحار الأنوار.

على الآخرين كان يعود لمثل هذا الانقطاع التام في العبادة والاتصال بالله وحده فيكتب في فصوص الحكم:

«.. «فهو في حق داود عطاء ونعمة وافضال. وفي حق آله على غير لك لطلب المعاوضة. فقال: اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور»... فأول نعمة أنعم الله بها على داود ﷺ أن اعطاه اسماً ليس فيه حرف من حروف الاتصال. فقطعه عن العالم بذلك إخباراً لنا عنه بمجرد هذا الاسم. وهي الدال والالف والواو..»[١].

واعلم أن الهدف من خلق الإنسان هو عبودية الله حيث يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿ما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾.

فالحياة لو انقضت سيراً نحو هذا الهدف كانت على الصراط المستقيم وإلّا فعلى طريق المغضوب عليهم والضالين. وطريق العبودية منتهاه بلوغ العبد مقام «لقاء الله».

يشبّه «بابا أفضل الكاشاني» العالم بشجرة ثمرتها الناس والناس بشجرة ثمرتها العقل والعقل بشجرة ثمرتها لقاء الله.

فيا أيها العزيز! لما كان القرآن ينبئنا بتسبيح وصلاة جميع الموجودات فما أخزى الإنسان ان هو ارتضى لنفسه في عبودية ربه مقاماً أدنىٰ من الحيوانات والنباتات والجماد بينما كانت الغاية من خلقه لقاء ربه:

---

١ ـ فص الحكمة الوجودية في الكلمة الداودية.

﴿ألم تر أن الله يسبح له مَن في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه. والله عليم بما يفعلون﴾[١].

فميلادك في هذه الدار كان تمهيداً لولادة أخرىٰ في حياة جديدة كنهها عبادة الله. فصاحب كتاب «نفاس الفنون» يرىٰ أن الولادة على نوعين، ولادة يمثّلها بخروج أجنة أرواح المؤمنين من مشيمة الغيب إلى أجواء الشهادة عن طريق آباء شكليين وولادة يقول عنها أنها خروج أجنة أرواح المؤمنين من مشيمة عالم الشهادة إلى أجواء عالم الغيب عن طريق آباء معنويين وتستهل هذه الولادة، برأيه، مع تحرر الروح من قيود التعلقات الدنيوية تماماً وهي الولادة التي أشار إليها النبي عيسىٰ ﷺ بقوله:

«لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرتين»[٢].

يقول أبو الفضل القارمدي فيما يخص هذه الولادة بأن جميع الموجودات تلد مرة واحدة إلّا الطيور وبني البشر. فالطيور تبيض أولاً ثم تفقس بيوضها وتتولد الفراخ وقد لا تتولد. والبشر يلد بشراً أولاً ثم يتولد عن البشر انسان أو قد لا يتولد.

والعارف أبو يزيد البسطامي يصف ولادته الثانية بأنه تحرر خلالها من أبي يزيد مثلما ينسلخ الثعبان من جلده.

---

١ ـ سورة النور، الآية ٤١.

٢ ـ الملا عبد الله الزنوزي، الأنوار الجلية، ص ٢١٦.

«مكافآت العبودية»

من ارتضى بعبودية ربه ترافقه الأنوار الالهية في جميع شؤون حياته الدنيوية والبرزخية والأخروية، فتحفظه من التيه بعد ذلك. ليتقص في ضيائها دربه نحو لقاء الله. هذا ما تشير إليه الآية:

﴿الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات الى النور﴾[1].

تنبه الى أن الظلمات ذكرت في الآية جمعاً والنور مفرداً للدلالة على كثرة المصايد التي تتربص السالك في طريقه. وهذا النور المفرد هو الذي يهدي الانسان من الكثرة إلى الوحدة:

﴿أوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[2].

وهو نور يطمح كل من أصابته عتمة القيامة إلى نيل قبس منه دون جدوىٰ:

﴿يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم،

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوز العظيم﴾[١].

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾[٢].

وهو نور يفتح صدرك باستمرار ليَفسَح فيه متسعاً من المجال لاستيعاب بحار نور معرفة ربك:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه..﴾[٣].

ثم أنك لما صرت له عبداً وهو لك مولى يتولى ولايتك وتدبير شؤونك، فلا سبيل للشيطان من بعد ذلك إليك:

﴿والله ولي المتقين﴾[٤].

و ﴿كفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾[٥].

فما دام عباده يولّونه شؤونهم يتعهد بتدبير أمورهم.

﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾[٦].

ولما كانت الحكمة هي إحدى صفاته، فإنه خص عباده بمقام «عند

---

١ ـ سورة الحديد، الآية ١٢.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ١٣.

٣ ـ سورة الزمر، الآية ٢٢.

٤ ـ سورة الجاثية، الآية ١٩.

٥ ـ سورة النساء، الآية ٤٥.

٦ ـ سورة الأنعام، الآية ١٢٧.

ربهم» وبلقائه المنعش ثم وعدهم:

﴿الا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[١].

فيا عزيز النفس! الخوف يرتبط بالمستقبل: الخوف من مآل الحياة، من الاحتضار، من الموت، من البرزخ، من السؤال، من الميزان وأخيراً من المصير النهائي ومن سوئه وتمخضه عن الهموم والأشجان. أما الحزن فإنه يرتبط بالماضي: الشباب ولى، العمر انهدر، النفس تدنست، العبء أضنته بضاعة ثقيلة، الثروة أهدرت. فأنظر أية بشرىٰ يزفها الله إلى عباده المؤمنين حيث يعدهم: ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

سوف أحجم عن الاسترسال في عد جوائز المؤمنين من عباد الله لأنني لو فعلت سوف يطول بنا المقام في هذا البحث. من هنا أكتفي بالقول: إنك لا تنال مقام القرب إلى الله إلا في ظل العبودية، فدعني أحدثك عن أنواع القرب.

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٦٢.

«أنواع القرب»

قال الله تعالىٰ:

«ما تقرب إليّ عبد بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. إذا دعاني أجبته وإذا سألني أعطيته»[1].

أما ترىٰ العبد يؤدي واجباته إزاء ربه فتستدرجه لذة عبادته إلى المستحبات فإلى أين ينتهي به السبيل؟!

في هذا المقام يلغي العارف وجوده فما ترىٰ عينه إلّا ربه، وما تسمع أذنه إلّا كلامه، ولا ينطق لسانه إلّا بذكره، ولا تتحرك يده لغيره، ولا تخطو قدماه إلّا في دربه.

ونوع آخر من القرب دعنا نسميه «القرب الوريدي» أشار إليه الله تعالى في قوله:

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٠، ص ٢٢، حديث قدسي.

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[١].

و ﴿هو معكم أينما كنتم﴾[٢].

أما قرب خاصة عباده فهو قرب الفرائض والنوافل، في هذا المقام من القرب تؤثر تجليات الصفات الرحيمية في تنشئة العبد. نأمل من الله تعالى أن ينعم علينا بهذا القرب.

قال الإمام علي عليه السلام:

«المؤمن ينقلب في خمسة من النور مدخله نور ومخرجه نور وعلمه نور وكلامه نور ومنظره يوم القيامة إلى النور».

هل تطلب أسمىٰ من هذه المقامات، مقامات بمثل هذه العظمة أعدت لك. فما أبشع سلوك العبد لو انشغل عنها بلهو الدنيا ولعبه!

وهذه المقامات إنما هي زاد دنياك أما عن زاد آخرتك فاستمع إلى الحديث النبوي الشريف:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«العارف إذا خرج من الدنيا لم يجده السائق والشهيد في القيامة ولا رضوان الجنة في الجنة ولا مالك النار في النار.

قيل: وأين يقعد العارف؟

قال عليه السلام: في مقعد صدق عند مليك مقتدر»[٣].

---

١ ـ سورة ق، الآية ١٦.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ٤.

٣ ـ عن كتاب «هزار كلمه» (ألف كلمة)، لآية الله حسن زاده آملي.

وهذه هي مرتبة الشهداء التي أشار إليها الباري تعالى في الآية: ﴿عند ربهم يُرزقون﴾.

فإن شملتك تلك الأنوار الخمسة فهل تعرف علامتها؟ يخبرك عن علامتها رسول الله ﷺ، وهو من كان وجوده نور السماوات والأرض، بقوله:

«إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح.

قيل: وما علامة ذلك؟

قال ﷺ: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت»[1].

ولكنه مع ذلك تواق للقاء لا يرتوي ظمأه ببشرى اللقاء. وقد قال أمير المؤمنين الإمام علي أنه أكثر شوقاً للموت من الرضيع لثدي أمه.

هؤلاء هم الذين تقرأ وصف حالهم في الحديث القدسي:

«ألا طال شوق الأبرار للقائي وإني إليهم لأشد شوقاً»[2].

---

١ ـ عن «إحياء العلوم» للغزالي.

٢ ـ المصدر السابق.

«برهان الصديقين»

إنك إن قرأت الأجزاء السابقة من هذه السلسلة تعلم أنني كتبت ما كتبته حول التجلي تفسيراً للآية الشريفة:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1].

فتجليات حضرة الحق تعالىٰ تظهر بثلاثة أنماط لعباده، أحدها التجلي الآفاقي والآخر التجلي الأنفسي، ثم بعد ذكر هذين التجليين في الآية، يقول تعالى أن صاحب البصيرة لغني عن المعرفة الآفاقية وكذلك عن المعرفة الأنفسية، ألا يكفيه أن الله شاهد وقائم على كل شيء؟ يطلق على هذه المعرفة «برهان الصديقين». وأنا بصدد ايضاح هذه القضية، حتى المقدور، للقراء الأعزاء:

أراني ملزماً بعرض مقدمة قصيرة في هذا السياق أوجهها لمن لا يكون على معرفة بالمصطلحات الفلسفية والعرفانية، تتضمن تعريف مصطلحي «الماهية» و «الوجود».

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٥٣.

«الماهية» مصدر جعلي مأخوذ من «ماهو». والماهيات تعرض ذات مصاديقها، وتبين ما هي الأشياء الظاهرية الخارجية. أرى أنك عندما تشير إلى شيء ما وتسأل: ما هذا؟ ما يأتيك في الجواب هو ماهية ذلك الشيء.

ثم اننا عندما نواجه شيئاً ما نستوحي منه مفهومين أحدهما مفهوم «الوجود» والآخر مفهوم «الماهية» ومفهوم الوجود متماثل في جميع الماهيات وله مدلوله في جميع الأشياء الخارجية. فمع مشاهدة أية ماهية نفهم أن «هذا الشيء موجود» أي أن الوجود هو أساس ظهور الأشياء عموماً أما «الماهية»فإن مفهومها يدل في كل الحالات على نوع خاص من الأشياء مثل: الأرض، الشجرة، الحيوان و...

من هنا، فإضافة إلى حصول مفهومين من النظر إلى أي شيء فإن الإنسان يستوحي منه أن للوجود مظاهر لا حصر لها في عالم الخلق.. فهو يتجلىٰ في كل شيء بنمط خاص. فالماهيات وإن كانت تشهد كثرة لا عد لها، ولكن الوجود واحد والمفهوم المضاد له أيضاً واحد فأما أن يكون وجوداً أو عدماً. والعدم لا كينونة له. ولهذا عندما سئل الامام علي بن أبي طالب عليه السلام عما هو الوجود تساءل مجيباً بأنه ماذا هنالك غير الوجود.

ومصطلح «الماهيات» يرتبط بالفلسفة أما في العرفان فيطلق على هذا المفهوم مصطلح «الأعيان الثابتة».

والوجود بحد ذاته على نوعين «الوجود المطلق» وهو مستقل في جميع الجوانب فلا يرتبط الموجود أو يتقيد بأي شيء آخر ولا سبيل

للعدم إليه، و «الوجود المقيّد» وهو بحاجة إلى محل وموضوع وعلة. الوجود المطلق (ويكون الوجود عين ذاته) هو وجود الحق تعالى، والوجود المقيد هو وجود الماهيات، وعلة وجودها هي الذات المقدسة للوجود المطلق الذي يتجلى بحد وحصر في الماهيات، فهي في الواقع عدم محض لولا تجلي الوجود المطلق فيها. ولهذا يقال أن الماهيات لم تستشم حتى نفحة من الوجود أي أن حقيقتها لا تمت للوجود بأية صلة. تمعن بدقة في هذه الإشارة اللطيفة: «الماهيات هي خيال الوجود، ففيها خط رقيق من الوجود، لا أن يكون وجودها باطلاً بكله.. فلولا الماهيات لما ظهر العالم. فالماهيات حدود الموجودات وظلها لا يكون لها وجود في الحقيقة فقد اكتسبت الوجود بتابعيتها لأصل الوجود[1].

واعلم أنه ليس في العالم أكثر من حقيقة واحدة وهي حقيقة الوجود، وما سوى هذه الحقيقة إنما يكتسب ما يملك بالاستناد إلى هذه الحقيقة. إذاً، ذات المُوجِد هي أولىٰ بمقام الحقيقة قياساً إلى من يكون بحاجة إلى هذه الحقيقة.

﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾.

وهو الذي لا حد له ولا سبب ولا شكل ومع هذا ليس في العالم أي شيء أجلىٰ من وجوده، وكل المخلوقات التي نالت اسماً أو شكلاً في العالم الخارجي إنما اكتسبته من قبس تلك الحقيقة الأصيلة، فهي ظل

---

١ ـ انظر كتاب ألف إشارة لآية الله حسن زاده آملي، الإشارة (٥٨٨).

الوجود وليس أصل الوجود:

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾[١].

إذاً، وجود حضرة الأحدية واجب بذاته وقائم وبه يقوم ما سواه ووجود الممكنات إنما هو من مظاهر تجلي وجوده.

ـ ﴿وهو معكم اينما كنتم﴾[٢].

وقال ايضاً:

ـ ﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٣].

وقال:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[٤].

وأيضاً:

﴿فأينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾[٥].

كما قال الإمام علي عليه السلام:

«فهذا الوجود كله وجه الله»[٦].

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٥.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ٤.

٣ ـ سورة ق، الآية ١٦.

٤ ـ سورة الحديد، الآية ٣.

٥ ـ سورة البقرة، الآية ١١٥.

٦ ـ جامع الأسرار للسيد حيدر الآملي، ص ٢١١.

ويروى عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال:

«يا من هداني إليه ودلني حقيقة الوجود عليه»[١].

ونقرأ في نهج البلاغة:

«كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم»[٢].

ولمعرفة حقيقة وجود الممكنات يكفينا التمعن في عبارة الإمام الحسين ﷺ حيث يقول:

«كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك»[٣].

ويعرّف القيصري الوجود على أنه ما ليس به حاجة لأمر خارج عن ذاته في تحققه فهو قيوم ثابت بنفسه ومثبت لأمر غيره[٤].

***

باستيعابك لهذه المفاهيم تعلم أن العالم ليس هو ولكن العالم يتحول عدماً لولاه.

---

١ ـ جمال الأسبوع، السيد إبن طاووس.

٢ ـ الخطبة ١١.

٣ ـ من دعاء عرفة، مفاتيح الجنان.

٤ ـ انظر «الفصوص» للخوارزمي.

«نظرة إلى العلة من نافذة المعلول»

الآن وقد جئتك بالتمهيدات السالفة، اعلم أن البرهان نوعان، فالاهتداء إلى العلة بواسطة المعلول يسمى البرهان «الإنّي» أما الاهتداء إلى المعلول بواسطة العلة فإنه البرهان «اللِمّي». وهذا ما لاحظناه في برهان الصديقين. فلما كان الله هو مُظهر الأشياء فأنّى للأشياء أن تُثبت وجود مُظهرها؟! هذا ما يشير إليه الإمام الحسين بن علي ﷺ في كلام له عرضناه على الصفحات الماضية، حيث يقول ﷺ:

«أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بَعُدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك. عميت عين لا تراك»[1].

إن أنت أمعنت بدقة في هذه المقامات تلتفت إلى أن الإنسان يدرك الوجود أولاً ثم يتنبه إلى الماهية. أطبق جفنيك ثم انظر إلى الشارع من ثغرة تتركها في ستارة نافذة غرفتك باتجاه الشارع. بصرك يدرك في

---

١ ـ من دعاء عرفة.

الوهلة الأولى أن هنالك أشياء ما في الخارج ثم يستوعب أن هـذه الأشياء هي الشارع والسيارات والأشجار والناس.

فالوجود هو الذي أظهر هذه الأشياء إليك وليس هذه الأشياء هي التي جسدت لك الوجود.

واعلم أن المحجوب يحتجب بثلاثة أنماط.

ـ صنف لا يمكن رؤيته وادراكه لبعده عن العين أو عن دائرة وحيز الادراك الإنساني مثل الموجودات المستقرة في الكواكب والمـجرات السماوية الأخرى.

ـ وصنف يحول حجاب أو عائق ما، بين رؤيتنا أو ادراكنا له،

ـ ومحجوب آخر يحتجب عنا لشدة قربه. فإنك إن وضعت صفحة الكتاب على عينيك يتعذر عليك رؤيتها وقراءتها.

الآن وقد عرفت هذه الحقيقة، اسأل من شخص ما: ماذا يوجد في هذه الغرفة. سوف يذكر الأشياء الموجودة كلها. إسأله ثانية: وماذا بعد؟ لا تجد لديه رداً على هذا السؤال. والحقيقة هي أن الهواء شغل حيزاً من الغرفة أكبر من كل ما ذكره من اشياء، وأهيمته تبلغ درجة تجعله لا يقوى على مواصلة الحياة للحظة لولاه. ومع ذلك غاب عن نظره رغم جلائه. إسأله: وماذا بعد؟ يعود إلى الصمت ثانية. قـل: ثـبوتك عـلى أرض الغرفة يعود لقوة جاذبية الأرض وأثرها فيك. وهكذا كل شيء موجود في هذه الغرفة. كيف غاب ذلك عن بالك؟!. بل مر على بني الإنسان عشرات القرون وهو غافل عن قوة الجاذبية رغم تأثره بها في كل بقعة من وجه الأرض. اسأله مرة أخرى: وماذا بعد؟ لا تسمع رداً

في هذه الدفعة أيضاً. قل: ما ذكرته حتى الآن أكان وجوداً أم عدماً؟ سوف يلتفت هنا أن كل ما عدّ وذكر هي تجليات الوجود. تنبه لها جميعاً وغفل عن الوجود نفسه. ثم أنه يتوجب علينا أن نعلم أن كل شيء يعرف بضده: «تعرف الأشياء بأضدادها». والوجود لا ضد له إلّا العدم، وبما أنه ليس للعدم مصداق في العالم الخارجي يكون إدراك مفهوم «الوجود» أمراً في غاية الصعوبة لشدة ظهوره وقربه.

إذاً، يمكن القول أن الممكنات هي أحط شأناً من أن تكون لربها العظيم معرفاً بل أنه هو نفسه يتجلى بأسمائه في مرآة الممكنات.

يروي منصور بن حازم أنه قال للإمام جعفر الصادق عليه السلام: إني ناظرت قوماً، فقلت لهم: ان الله جل جلاله اجلّ وأعزّ وأكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله. فقال: رحمك الله»[1].

ونقرأ في دعاء لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

«يا من دل على ذاته بذاته»[2].

وفي دعاء آخر للإمام السجاد عليه السلام، جاء قوله:

«وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك»[3].

واستمع لكلام آخر عن «صدر الدين القونوي» ذكره في فصوصه: «والحق سبحانه من حيث وحدة وجوده لم يصدر عنه إلّا واحداً

---

١ ـ الكافي، المجلد ١، ص ٨٦، باب «أنه لا يعرف إلّا به». الحديث ٣.

٢ ـ من دعاء الصباح.

٣ ـ من دعاء أبي حمزة الثمالي.

لاستحالة إظهار الواحد وايجاده (من حيث كونه واحداً) ما هو أكثر من واحد، لكن ذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على الأعيان المكونات وما وجد منها وما لم يوجد فما سبق العلم بوجوده. وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود المسمىٰ أيضاً بالعقل الأول وبين سائر الموجودات ليس كما يذكره أهل النظر في الفلسفة».

ولعبد الرزاق الكاشاني أيضاً رأي في هذا الخصوص ذكره في اصطلاحاته، حيث يذهب إلى: أن التجلي الشهودي هو ظهور الوجود المسمى باسم النور وهو ظهور الحق بصور أسمائه في الأكوان التي هي مظاهرها وذلك الظهور هو النَفَس الرحماني الذي يوجد به الكل.

والأكثر روعة من كل هذا هو ما جاء في كلام محيي الدين ابن عربي حيث يقول:

«العالم غيب، ما ظهر قط والحق ظاهر، ما غاب قط».

أما الإمام الخميني ﷺ فإنه يقول: فما كان في دار التحقق والوجود ومحفل الغيب والشهود، إلّا الحق ظاهراً وباطناً، أولاً وآخراً، وما وراءه من تلبيسات الوهم واختراعات الخيال»[1].

وتؤيد هذا الكلام إشارة رسول الله ﷺ إلى أنه لم يتوافق مع الحقيقة من شعر الجاهلية إلّا بيت شعر للبيد قال فيه:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

---

١ ـ مصباح الهداية، ص ١٤٢.

وأما قولنا بأن الله وجود محض فلا تتصورن أن الذهن قادر على استيعاب هذا المفهوم بدقة فما تدركه الحواس هي الماهيات. وحتى تصور الأشياء ذهنياً إنما هو تصور لماهياتها. فكيف لذهن الإنسان وتصوراته أن تستوعب وجود الله المتجرد عن الماهية والنتيجة هي كما قيل بأنه لا سبيل لمعرفة الله إلّا بنفسه.

تأمل بدقة في الحديث الشريف التالي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو شرك لأن الحجاب والصورة والمثال غيره وإنما هو واحد موحد فكيف يُوحِّد من زعم أنه عرفه بغيره. إنما عرف الله من عرفه بالله فمن لم يعرفه به فليس يعرفه إنما يعرف غيره»[1].

إلهي! افتتن بك خلقك بلا حاجة منك لاستثارتهم، الوالهون في ديارك لا حصر لهم، الكل في انتظار والقلوب في الحناجر. الأبواب لا تتفتح بأيدي هؤلاء وأنت صاحب الدار، افتح علينا الأبواب فلا طاقة لنا بأكثر من هذا الانتظار.

ولما عرض حضرة الله جل جلاله صفاته في الممكنات وأودع في فطرتك حب هذه الصفات فإنه هو الذي يظهر تجلياته إليك وهو الذي يدعوك لما يحييك:

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[2].

---

١ ـ كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق (ره).

٢ ـ سورة الأنفال، الآية ٢٤.

من هنا لا يبقىٰ أمامك باب ترد منه إلى حرم تلك الذات الكريمة إلّا باب التأمل والتمعن بدقة في أسمائه، فالإنسان لما يلتفت إلى أن بناء كل من الموجودات وخلق كل من الممكنات ممزوج بالعلم والقدرة والرحمة والجمال و... يفهم دون شك أنه لابد أن يكون هنالك عالم بذاته وقادر بذاته ورحمن بذاته وجميل بذاته يؤثر فيها.. وكل هذه التجليات الاسمائية هي تجليات ذاته الأزلية السرمدية القديمة فلا يبهرنه علم عالم أو رحمة رحيم أو جمال جميل غيره. فكل هذه الصفات زائلة آفلة بل يُركّز في تلك الذات فكل هذه المفاتن قبس من جماله وكماله وهو سبحانه القائل:

﴿وفوق كل ذي عَلم عليم﴾[1].

وهكذا بالنسبة لجميع الصفات يمكن القول:

«فوق كل ذي قدرة قدير وفوق كل ذي كرم كريم وفوق كل ذي جمال جميل».

فمن هذه الأسماء الحسنى ينساب نهر إن أنت اتبعته يهديك إلى ذلك البحر العظيم، بحر الأسماء الحسنى.

ولما كانت تلك الذات كنز الصفات ولا يروقن لنبع الجمال والكمال أن يستتر وراء الحجب فلابد لكل من الصفات أن يتخذ مظهراً يتجلىٰ منه. وهذه المظاهر تتطلب نور معرفة، معرفة حُبيّة محركك في سياقها هو حضرة «الحبيب» الذي يهديك بها السبيل إلى كنز الصفات. كل هذا

---

١ ـ سورة يوسف، الآية ٧٦.

الكلام يستوحىٰ من الحديث القدسي:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

فصاحب البصيرة لا ينظر إلى أي شيء إلّا ويرىٰ فيه آية من آيات خالقه فحتى لو لم يكن في العالم إلّا شيء واحد لكفاه مؤونة لمعرفة ربه به.

هذا ما تعنيه الآية: ﴿أَوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1]. فلحضرة الرب معيّة قيومية مع كل شيء وهكذا معيّة علمية ومعيّة ربوبية. من هنا تعددت سبل الاهتداء إلى الله فبلغت عدد مخلوقات عالم الوجود اللا متناهي، وذهب البعض إلى أن الحديث: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»، ينطوي في الواقع على هذه الإشارة بالذات. فالعارف يرىٰ في كل شيء ينظر إليه خالق ذلك الشيء قبل أن يدرك ماهيته:

قال الإمام علي عليه السلام:

«ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله فيه وقبله وبعده».

ولِمَ لا ومثل هؤلاء العظام لا يلقي نظرة في أي اتجاه إلّا ورأىٰ فيه وجه ربه ورأى الله شاهداً فيه.

نخلص من هذا البحث أن إدراك الوجود هو أوضح إدراك إنساني. وهذا الوجود أما يكون وجوداً مطلقاً منزهاً من كل حصر وحد ونقص، وهو وجود الباري تعالىٰ أو يكون محدوداً ومحصوراً أو أحياناً ناقصاً

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٥٣.

من بعض جوانبه وهو وجود الممكنات. وبما أن وجـود المـمكنات ليس مستقلاً فكل ما لهم هو الفقر المطلق وكل ما يظهر عـندهم مـن تجليات الوجود لا يكون إلّا مكتسباً من واجب الوجـود. فـالوجود دون شك هو وجود واحد يعرض تجلياته في الماهيات في كل مكان ونحن ننظر إلى الوجود بالوجود وإلى ذلك تشير العبارة:

«بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك»[١].

١ ـ من دعاء أبي حمزة الثمالي.

«مقام الفناء»

يبلغ السالك في مقام القرب مرتبة لا يعود يرى فيها مخلوقاً ويغيب عنه كل شيء حتى نفسه فيفني أنويته وكيانه في ذات الحق، وإرادته كذلك في إرادة الحق. عندئذ يكون قد فاز بمقام «الفناء».

وبانتظار إغفالك عن نفسك استمع إلى هذه الحكاية عن ابي يزيد البسطامي حيث يحكي أنه في يوم ما ورد مدينة فرأى الناس مجتمعين في ساحتها.. سأل عن سبب التجمهر فقيل له ان حاكم المدينة قد أمر بجلد أحد الشباب. تقدم البسطامي نحو الشاب فرآه يتعرض لضربات السوط دون ان يصدر عنه لشدة الأذىٰ والألم أنين بل كان للصمت ملتزماً وازاء ما يتحمل متجلداً. ولما وصلت عدد الأسواط المائة، عدداً، لقي من الجلاد خلاصاً وصار الناس شتاتاً. عندها تعالى من الشاب من لوعة الألم صياح.. تقدم إليه أبو يزيد مواسياً وسأله مندهشاً لماذا كان اثناء الجلد، عن التأوه ممتنعاً وصار الآن بكل هذا الصياح مولولاً.. تنهد الشاب وأخبره أنه ما زال منذ

سنين بابنة حاكم تلك المدينة مغرماً ولها محباً.. ولما كان ـ غالباً ـ في حبّها مقيماً ناله ـ من حبها ـ الحكم بالجلد في ساحة المدينة نصيباً وعندما كان للضرب بالسوط مُعرّضاً، أقبلت حبيبته إلى الساحة تفرجاً فصار بالتطلع إليها، عن التفكير بنفسه وبضربات السوط، منشغلاً. ولكنه الآن عن النظر إلى جمالها أصبح محروماً فصار لألم الجلد شاعراً..

ولكن رؤية المحبوب في هذه الحكاية كانت آنية. إطمح إلى ما يؤول إليه أمرك بعد عمر تقضيه سالكاً متجشماً عناء السلوك حتى تبلغ ديار المحبوب فتلقي أعباءك هناك وهي أسمىٰ المحطات فتنشغل بالنظر في جمال المحبوب فلا تعود تلتفت للآخرين بل حتى لنفسك.

﴿إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾.

هل أنت راغب في أن تنبذ الشك والريبة عن نفسك وتحصل على بشرى اللقاء في نفس هذه الدار؟ عليك أن تتفهم معنى إحاطة الرب بكل شيء. إنها إحاطة حضرة القيوم. وإحاطة القيوم متواصلة لا تنفك ولو للحظة واحدة عن المحاط. ولما كان هو كل العلم فإحاطته تعني إحاطة علمه بأي عالِم، ولما كان كل القدرة فإحاطته هي إحاطة حياته بكل حي، ولما كان هو السمع كله فإحاطته إحاطة سمعه بكل سامع، ولما كان الرحمة كلها فإحاطته إحاطة وجوده بكل ما هو موجود.. وكل قائم مكتسب إنما اكتسب ما اكتسبه من فيض حضرة القيوم:

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[١].

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾[٢].

تتجلى مظاهر القدرة في كل مملكة سمائه وأرضه فليس في العالم قادر سواه.

قال تعالى:

﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾[٣].

وقال:

﴿الله لا إله إلّا هو الحي القيوم﴾[٤].

وقرأنا عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«وهو حياة كل شيء»[٥].

ولو شاء أن يمنع فيضه للحظة واحدة لسقط العالم فوراً في مقام العدم:

﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾[٦].

طال بنا المقام في هذا البحث فإن كنت تنورت بهذه المعرفة

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ٣٣.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ٣.

٣ ـ سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

٥ ـ الكافي.

٦ ـ سورة البقرة، الآية ٢٠.

أخبرني ما يعنيه وجودك في هذه العرصة؟

يقول الله عز وجل:

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء﴾.

إننا لا نرى الله ما دمنا نرىٰ أنفسنا. السابحون في بحر معرفة التوحيد كأنهم سمن سُلطت عليه نار حيث يذوب بالتدريج حتى ينمحي فلا ترىٰ منه شيئاً.

وقطرة الماء إن انسابت إلى البحر تغدو عدماً ولها وجود، ووجوداً وهي في الحقيقة عدم.

فإن تنور الإنسان بنور المعرفة، فأنّى له التبجح بأمانة استؤمن عليها؟ لا سيما وهو حي بحياة صاحبها وعالم بعلمه وقائم بقيامه وقادر بقدرته وسميع بسمعه وبصير ببصره. والأروع من كل هذا، أنه لو كان من المصلين يردد في كل قيام له وقعود:

«بحول الله وقوته أقوم وأقعد».

في مثل هذا الموقف يدرك الإنسان فقره إن أمعن في هذه المفاهيم. وسوف يبلغ منتهى مراحل سلوكه متى وصل في فقره إلى الذروة. والسالك يعرف أن الله هو الوجود وأنه مظهر من مظاهره. كان يرى ظله ولا يلتفت إلى النور، فالنور قد استولىٰ عليه حتى لم يعد له وجود.

من هنا يتأتىٰ من اطلاعه على فقره استئناسه بالله الغني. فالعرفاء يقولون:

«الفقر إذا تم هو الله».

وتتجلىٰ لك هذه الحقيقة في حديث قرب النوافل:

قال رسول الله ﷺ:

قال الله تعالى: ما تقرب إليّ عبد بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه وأنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. إذا دعاني أجبته وإذا سألني أعطيته»[١].

فمعية الحق تعالى للجسم الإنساني ليست معية أهل النوافل بل هي معية عامة شاملة واختصاص معيته بأهل النوافل هو اختصاص معرفة العمل وهو ما ينعم الله عليه بإدراكها دون أن يستوعب الآخرون هذه القضية. هنا يتضح لنا ثانية أنه لابد من الالتفات إلى ذلك الفناء العام لكل الموجودات ليتجلىٰ عندئذ جمال سلطان الوجود.

إننا نقرأ في القرآن الكريم:

﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾[٢].

لم يذكر تعالىٰ لفظة «يُهلك» ليكون أمرك متعلقاً بالمستقبل بل قال أن كل شيء هو حالياً فانٍ وهالك في وجه الله. وهذا ما يستوعبه أولوا الألباب جائزة عاجلة لهم من ربهم في هذه الدار، ولا يرقى إليه إدراك المحجوبين (الغرباء عن دياره) إلّا يوم الحشر والقيامة. فالتوحيد أساساً هو الشهود بالوحدة وايجاد الوحدة. والمعنى الأول هو شرط

١ ـ بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٢.

٢ ـ سورة القصص، الآية ٨٨.

للتنعم بنور الايمان والمعنى الثاني يتطلب استنباط الوحدة من خلال النظر إلى الكثرة المتخيلة وحصول المعرفة بأنه ليس في الوجود سوى الباري تعالى وفيضه. وهذا هو مقام أهل اليقين.

مضت بي أعوام وأنا أرى نفسي ولا أرى الله ثم أتىٰ عليّ زمان أرى نفسي والله معاً وأنا الآن في حاله ألغيت فيها وجودي بين الله وأرى الله بالله وأن العالم هو مسرح تجليات أسمائه.

فلنر ما هو رأي المرحوم العلامة القزويني في مقام التوحيد. إنه بعد دراسته الأبعاد الخاطئة في التوحيد يعرض التوحيد المحض عند بعض المتصوفة على ما يأتي ذكره وهو جدير بالإمعان والتمحيص:

المقصود من وحدة الوجود هي الوحدة في رأي الواعين الذين أفاقوا من غفوة الطبيعة والنفس والهوى ولم يأبهوا لعوالم الكثرة واليقينيات اللا متناهية في عالم الإمكان ولم يولونها أهمية. ومعنى ذلك أننا جميعاً نعرف دون شك وتردد الكثرة والتعدد واختلاف الأنواع والأصناف والأشخاص، ونرىٰ من جهة أخرى أن حضرة الحق ظهر وتجلىٰ بعلمه وقدرته وارادته وحياته في مظاهر الايجاد والتكوينيات المختلفة في جميع أنواع الممكنات كتجلي المتكلم في الكلام وهو يدلي بكلامه في منتهى الفصاحة والبلاغة. ومثلما يجلس شخص وقد وضع في أطرافه المختلفة عدة مرايا يظهر في جميعها، ولكن لكون المرايا مختلفة في أنواعها فتعكس كل منها صورة الشخص بنحو ما، ومع الاتصاف بالصغر أو الكبر والصفاء أو الكدر. إذاً، ما يظهر من المتكلم في كلامه ومن الشخص في المرايا هو ظهوره لا وجوده ولا

حلوله في المرآة ولا إتحاده معها. ومن المسلم به أنـه عـندما يـنظر شخص آخر إلى هذه المظاهر والمرايا المـختلفة فـانه يـرىٰ الصـور المختلفة للشخص الظاهر في المرايا كما أنه يرى جسم المرايا وشكلها وحجمها. فإن فرضت عليه شـدة الولع والاهـتمام بـصاحب الصـور المختلفة أن يركز اهتمامه التام من بين كل الصـور المـختلفة بأصـل صاحبها حتى يغفل عن صغر الصور وكبرها وهي مدعاة الاخـتلاف والكثرة فيها وينمحي أصل المرآة وشكلها في نـظره فـلا يـرى مـن خصوصيات الكلام ولطفاته وبلاغته وفصاحته إلّا قـدرة النـاطق بـه ولطافة روحه وذوقه في التحدث وأن يطلع من مجمل الصور المتعددة في المرايا إلى نفس ذلك الشخص. فهذا هو معنى مـا يـصطلح عـليه وحدة الوجود في النظر و «الفناء فـي الصـور». ويـبدو انـه التـفسير الصحيح المتجرد عن كل إشكال وشبهة لمعنى «وحدة الوجود» أي أن المـوحد الحـقيقي لا يـرى فـي جـميع أعـيان المـمكنات وحـقائق الوجودات الإمكانية إلّا ما يظهر فيها من القدرة والصـفات الكـمالية دون أن يلتفت إلى الجهات الخلقية لنفس الأشياء والممكنات. بـمثل هذه الرؤية ترتبط السماء مع الأرض ويـتصل البـر والبـحر ويُـمحىٰ الانفكاك بين الأشياء فيلغي العارف حقاً، في توحيده النقي، الإضافات فلا يرىٰ إلّا الحق وصفاته. هذا هو معنى «وحدة الوجود» و «الفناء في الله» وقد اعتبرت الشريعة المقدسة، الإخلاص شرطاً للعبادة، كمقدمة لنيل هذا المقام حيث أن هذا الإخلاص يـمنح الشـخص الاسـتعداد

لخوض لجة العرفان»[١].

ويرى العرفاء في الآيات والأحاديث التالية حثاً لبلوغ هذه المنزلة:

قال تعالى:

﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا انفسكم﴾[٢].

وقال ايضاً:

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله»[٣].

وقال النبي عيسى عليه السلام:

«لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرتين»[٤].

وجاء في أحد الأحاديث القدسية قوله تعالىٰ:

«من طلبني وجدني ومن وجدني عشقني ومن عشقني عشقته ومن عشقته قتلته ومن قتلته فعليّ ديته ومن علي ديته فأنا ديته»[٥].

وقال الإمام علي عليه السلام:

---

١ ـ انظر كتاب «مقالات العلامة الرفيعي»، ص ٥٥.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٥٤.

٣ ـ سورة النساء، الآية ١٠٠.

٤ ـ كتاب «بحر المعارف»، ج ٢، ص ٥٨١.

٥ ـ عن «قرة العين للفيض الكاشاني»، الكلمة ١٩ وكذلك منهج القوى، ج ٤، ص ٣١٣.

«موتوا قبل أن تموتوا»[١].

ولتعلمن أن دخول السالك الى أية نشأة هي بالنسبة له ولادة وخروجه من أية نشأة موت. إن شئت قل: إذاً، خروجه من طور الكمون إلى طور الفعل هو ولادة ثانوية أو قل: تخلصه من النقص وحصول الكمال هو ورود في نشأة جديدة.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«الموت هو التوبة».

وعن الإمام علي عليه السلام

«الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا».

ونقرأ في خطبة المتقين:

«قد أحيا عقله وأمات نفسه».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«اغتنم المهل وبادر الأجل وتزود من العمل».

---

١ ـ عن «منهج القوى».

«ميلادان»

يرى صاحب كتاب «نفاس الفنون» أن الولادة على نوعين.. ولادة يصفها بخروج أجنة أرواح المؤمنين من مشيمة الغيب إلى أجواء عالم الشهادة عن طريق آباء شكليين، وولادة يقول عنها بأنها خروج أجنة أرواح المؤمنين من مشيمة عالم الغيب إلى أجواء عـالم الغـيب عـن طريق آباء معنويين. وتستهل هذه الولادة، برأيه، مع تحرر الروح من قيود التعلقات الدنيوية تماماً: وهـي الولادة التـي اشـار إليـها النـبي عيسى عليه السلام بقوله:

«لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرتين»[1].

والعارف البسطامي يصف ولادته الثانية بأنه تحرر خلالها من (أبي يزيد) مثلما ينسلخ الثعبان من جلده.

ويقول أبو الفضل القارمدي فيما يـخص هـذه الولادة بأن جـميع الموجودات تلد مرة واحدة إلّا الطيور وبني البشر، فالطيور تبيض أولاً

---

١ ـ عن كتاب الانوار الجلية للملا عبد الله الزنوزي، ص ٢١٦.

ثم تفقس بيوضها وتتولد الطيور أو قد لا تتولد، ويولد لبني البشر بشر أولاً ثم يتولد عن البشر إنسانٍ أو قد لا يتولد.

فمن يخطو في طريق الكمال له في كل خطوة ميلاد وممات، ميلاد في منزل أسمىٰ وخروج من منزل أقل شأناً.

«الفناء من وجهة نظر آية الله جلال الدين الآشتياني»

«الانسان عاجزِ عن مشاهدة (الوحدة) ما دام يعيش في عالم الكثرات والكثرات تحيط به ولم ير الحق متجلياً وظاهراً في مجال ما ولم ينظر إلى جميع الكثرات من منظار الوحدة. ولهذا يكون ترك كل شيء هو شرط الشهود والوحدة والوصول إلى مرتبة الفناء، ومن ذلك الفناء من الوجود. والفناء من هذا الفناء أيضاً، هو شرط الفناء الحقيقي. ويحدث هذا الفناء لجميع المخلوقات في مقام التجلي باسم «القهار» و «المالك» و «الوارث» و «المغني» و «المعيد»، وللكُمّل من الأولياء في نفس هذه النشأة لشهودهم القيامة بحكم «موتوا قبل أن تموتوا».

ولكن أهل الكلام فسروا حقيقة فناء الكثرات عند تجلي الحق باسم «القهار» باعتباره انعدام الخلق وتحول الوجود إلى عدم، وقالوا: عند النفخة، تتحول الأشياء إلى عدم، حتى المجردات منها. ولم يفهموا أن الوجود لا يقبل العدم وان فناء الحقائق في القيامة هو فناء خلقي

لا فناء حقّي. وإذا صار هذا الفناء نصيب (الانسان) الكامل فإنه يحدث قبل نفخة القيامة...»[١].

أين نحن المساكين المثبَّطين الخالدين إلى الأرض، أسارى الطبيعة الخادعة، من مثل هذه المنازل؟ إنها أمور ذوقية لا يلتذ بها إلّا من تذوقها. ومثل هذا الكلام يليق بأصحاب تلك المنازل وليس نحن الزاحفين في وادي السلوك. ذكرت لك قبل هذا مثالاً عن طفل كان يجلس إلى جانبي وأنا أستمع إلى المذياع فسمع المذيع يقول: «هنا لندن» فأردف قائلاً: ما أكذب هذا الجهاز، إننا في شيراز ولسنا في لندن، هذه هي حالنا! فنحن لم نبلغ تلك المنازل، ونحن في غفلة عنها. من هنا قد نتصور كلام سكنة القمم الشاهقة والمنازل الرفيعة بأنه كذباً. يكفينا أن لا نتنكر لهذه المنازل على الأقل.

قرأت في إحدى رسائل عبد الله قطب الشيرازي قوله بأن الحق متجلٍ لن يستتر والعبد متوارٍ لن يتجلى أبداً. ثم يردف ناصحاً أن نحتفظ بجلاء المتجلي وباستتار المتواري وأن نكون مظهرين للحق لا لأنفسنا ونكون الرب لا أنفسنا»[٢].

لما التقى النبي يعقوب ﷺ فلذة كبده النبي يوسف ﷺ بعد فراق دام عشرين عاماً سأله أن يقص عليه حكايته مع إخوانه، فرد عليه يوسف يطلب منه أن يسأله عن حكايته مع ربه.

---

١ ـ انظر هامش «المكاتبات العرفانية»، ص ٦٣.

٢ ـ انظر «مكاتيب عبد الله قطب الشيرازي».

فكلما ازداد تعمق الإنسان في عبارات التوحيد الثلاث، ألغيت أنويته أكثر. وهذه العبارات هي عبارة «لا إله إلّا الله» للتوحيد الصفاتي وعبارة «لا حول ولا قوة إلّا بالله» للتوحيد الأفعالي وذكر الخضرية أي «لا هو إلّا هو» للتوحيد الذاتي.

ولكن احترس أن لا ينتهي بك هذا الالتفات إلى الإيمان بالجبر فأنت تتمتع بجميع المواهب والنعم الالهية ولكن في إطار الأمانة، إنها أمانة وضعت في متناول يدك لأيام معدودات بهدف اختبارك وابتلائك. فالممكنات لا تملك في الحقيقة لنفسها شيئاً قط.

ـ **﴿مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾**[١].

ـ **﴿قُل من يرزقكم من السماء والأرض، أمَّن يملك السمع والأبصار﴾**[٢].

الآن وبعد هذه التمهيدات افهم أن الانسان المتبصر لا طاقة له بأخذ نفسه بالحساب، فكيف له أن يركن إلى الكفر أو التمرد إزاء حضرة المتكبر؟! فشمسه الساطعة عندما تشرق على قلب السالك تنبهه مع كل سامع إلى سمعه ومع كل بصير إلى بصره ومع كل رحيم إلى رحمته ومع كل رزاق إلى رزقه ومع كل قادر إلى قدرته. وأنّى لهذا العبد أن يحتجب عنه بعد ذلك جمال المحبوب وجلاله.

فلنستمع إلى بعض نصائح الشاعر العارف مولوي:

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٢٦.

٢ ـ سورة يونس، الآية ٣١.

«الوجود لا يستوعب معه (مع الحق تعالىٰ) نوعين من «الأنا» أنت تقول (أنا) وهو يقول (أنا). أما أن تموت في حضرته او يموت ذكره لديك زوالاً للاثنينية. فأما موته فهذا لا يمكن، لا خارجياً ولا ذهنياً. فهو (الحي الذي لا يموت). فما دام موته غير ممكن. استسلم للموت ليتجلى لك وتلغى الاثنينية»[١].

قال أحد العظام:

«دع نفسك لخالقها يفعل بها ما يشاء لا تدخل في البين»[٢].

هذا هو الشرط الأول المطلوب في نهج العبودية وذروة جهاد النفس. ففي جهاد النفس تلغىٰ تمنياتها ويستأصل الأصل والجذر. وقد جاء وصف هؤلاء في حديث المعراج فلنقرأ معاً:

«قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة، يموت الناس مرة ويموت أحدهم في كل يوم سبعين مرة في مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم»[٣].

وبالطبع النفس التي تثخنها الارادة بالجراح عشرات المرات يومياً ما يبقى منها شيء بعد مضي برهة من الزمن:

«أخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم»[٤].

---

١ ـ عن كتاب «فيه ما فيه» للشاعر مولوي.

٢ ـ مكاتيب عبد الله قطب الشيرازي، ص ٤٩٨.

٣ ـ ارشاد القلوب للديلمي، ج ١١.

٤ ـ نهج البلاغة.

«الفناء من وجهة نظر العلامة الطباطبائي»

لما عرفت أن الكمال الإنساني هو بالتحديد تحقيق أقسام الفناء الثلاثة أي بتعبير آخر بلوغ مقام توحيد الأفعال والصفات والذات. وتنبهت كذلك إلى أن قرب كل موجود إلى الحق تعالىٰ هو على قدر استحقاقه الذاتي. إذاً، هنالك وسائط بين النشأة الجسمية (النشأة المادية) والحق تعالىٰ، يتحدد ترتبها الوجودي بحسب الاستحقاقات الذاتية لهم.

من هنا يكون لزاماً على الإنسان في سيره نحو خالقه سبحانه وتعالىٰ أن يمر بجميع مراتب الأفعال والأسماء والذوات حتى يبلغ التوحيدات الثلاثة.

وبما أن الإنسان لا يبلغ الكمال في أي من المراتب إلّا بالفناء في تلك المرتبة وديمومة ذلك الكمال في نفس المقام فإنه في أي مرتبة من الكمال يطلع على جميع أنواع الفيض المترشحة إلى المراتب ما دون تلك المرتبة ويتحقق منها حتى يبلغ مقام توحيد الذات. وهنالك

لا يبقى اسم ولا ذكر ﴿المُلك يومئذ لله﴾. وهذا البرهان بتمام ايجازه يشتمل على جميع مقامات الأولياء وفيه أنباء أحوالهم ومقاماتهم ويكفي لكل صاحب فهم وإدراك. أما خصائص مقامات العرفاء فهذا ما لا يعرفه أحد سوى ربهم ـ عز اسمه ـ»[1].

في مثل هذا المقام يتحول نمط رؤية العبد إلى العالم، الحجب تتزايل والحياة الحيوانية تختفي معالمها والعبد يحيا حياة إلهية. رؤيته تغدو رؤية إلهية وكلامه وحياً ملكوتياً ومسامعه تألف سماع أصداء الملكوت. ألم يطلب النبي محمد ﷺ من الله أن:

«اللهم أرني الأشياء كما هي».

من هذا يتضح أن رؤية الأشياء على حقيقتها تتطلب عيناً من نوع آخر. فلنعرض عدة أحاديث منعشة عمن فازوا بمثل هذا القرب:

قال رسول الله ﷺ:

«ما من عبد إلّا ولقلبه عينان وهما غيب ويُدرك بهما الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فيرى ما هو غائب عن بصره»[2].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:

«سبحانك أي عين تقوم نصب بهاء نورك وترقى إلى نور ضياء قدرتك، وأي فهم يفهم ما دون ذلك إلّا أبصار كشفت عنها الأغطية وهتكت عنها الحجب العمية، فرَقت أرواحُها إلى أطراف أجنحة

---

١ ـ انظر رسالة نداء الولاية للعلامة الطباطبائي، ص ٩٥.

٢ ـ كتاب الوافي، المقدمة الأولى.

الأرواح فناجوك في أركانك وولجوا بين أنوار بهائك ونظروا من مرتقى التربة إلى مستوى كبريائك فسماهم أهل الملكوت زواراً ودعاهم أهل الجبروت عماراً»[١].

وعن رسول الله ﷺ:

«من عرف الله وعظمته منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام وعفى نفسه بالصيام والقيام»

قالوا: بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله! هؤلاء أولياء الله؟

قال: إن أولياء الله سكتوا وكان سكوتهم ذكراً ونظروا فكان نظرهم عبرة ونطقوا فكان نُطقهم حكمة ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة لولا الآجال التي قد كتبت عليهم لم تقرّ أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العذاب وشوقاً إلى الثواب»[٢].

كما قال ﷺ:

«إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح.

قيل: وما علامة ذلك؟

قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت»[٣].

ويروى عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

---

١ ـ «اثبات الوصية» للمسعودي.

٢ ـ أصول الكافي، باب الكفر والايمان.

٣ ـ إحياء العلوم للغزالي.

«المؤمن ينقلب في خمسة من النور مدخله نور ومخرجه نور وعلمه نور وكلامه نور ومنظره يوم القيامة إلى النور».

وكذلك قوله:

«قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه فمن طهر قلبه نظر الله إليه».

وجاء في أحد الأحاديث القدسية:

«يا داود! ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وحبي للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين»[1].

وفي حديث المعراج نقرأ وصفهم على النحو التالي:

«ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن»[2].

ومناجاة الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام زاخرة بتضرعهم إلى الله لبلوغ هذه المنازل. أمعن في الفقرات التالية:

جاء عن الإمام علي عليه السلام في المناجاة الشعبانية:

«إلهي وألحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك مُنحرفاً..

إلهي وألهمني ولهاً بذكرك إلى ذكرك واجعل همتي في روح نجاح اسمائك ومحل قدسك.

---

١ ـ عدة الداعي.

٢ ـ ارشاد القلوب للديلمي.

إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك.

إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سراً وعمل لك جَهراً».

***

أمعن التفكير في نفس هذه الفقرات من المناجاة الشعبانية، ففيها إشارة إلى: «نور العز الأبهج»، الوله بذكر الله، الهمة لمعرفة الأسماء، إبصار القلوب، نظرة تخترق حجب النور، بلوغ معدن العظمة، تعلق الأرواح بعز القدس الالهي، دعوة حضرة الرب واستجابة العبد، نظر الله، العبد يصعق لجلاله، مناجاة الله سراً مع العبد وتطبيق العبد لما أخذه بالسماع عن ربه. فماذا تعني هذه العبارات يا ترىٰ؟ فهل لنا أن نخلص منها إلى أن الوصول إلى تلك العوالم أمر خيالي أم حقيقة واقعية؟

اسمع عن الإمام علي عليه السلام ما جاء عنه في نهج البلاغة:

«إن الله جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله ـ عزت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يُذكّرون بأيام الله، ويخوّفون مقامه بمنزلة الأدلة في الفلوات...

... قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات في مقعد أطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم وحمد مقامهم، يتنسمون بدعائه روح التجاوز. رهائن فاقةٍ إلى فضله، وأسارى ذلةٍ لعظمته..»[1].

ونقرأ كذلك وصفاً لحالات هؤلاء على لسان رسول الله ﷺ:

«هو أن يكون طاعة الله حلاوته، حب الله لذته، وإلى الله حاجته، مع الله حكايته، على الله اعتماده، حسن الخلق عادته، والسخاوة حرفته والقناعة ماله والعبادة كسبه والتقوى زاده والقرآن حديثه، ذكر الله جليسه والفقر لباسه والجوع طعامه والظمآء شرابه والحياء قميصه، والدنيا سجنه والشيطان عدوه والحق حارسه والموت راحته والقيامة نزهته والفردوس مسكنه»[2].

على أية حال فهذه المقامات مقامات من ذاق طعم ولاية حضرة الرب ولا يتنحى عن خط العبودية للحظة واحدة في جميع شؤون حياته حيث أن:

«الولاية هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه وذلك يتولى الحق إياه حتى تبلغه غاية القرب والتمكين».

وهذه المقامات تحصل عندما يتوثق العبد بأن جميع الأمور تسير بيد الله تعالىٰ إضافة إلى عدم عقده الأمل في سواه بل أن يلغي وجود نفسه أيضاً تاركاً عمل الحساب للمستقبل مستسلماً في جميع أموره

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.

٢ ـ الكشكول، الشيخ البهائي (ره).

للحق، والحقيقة هي هكذا ليس إلّا.

ـ ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾[١].

ـ ﴿ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾[٢].

ولما كان هذا النهج في العبودية قد تحددت مسالكه لبني الإنسان نبينا محمد ﷺ والائمة عليهم السلام سمي بالولاية المحمدية. إنه نهج يوصل المؤمن، إن هو اتبعه، إلى مقام يكون فيه:

﴿الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات الى النور﴾[٣].

فيا عزيز النفس! الموت آت ونحن جميعاً سائرون إليه بل في انتظاره:

يقول الإمام علي عليه السلام:

«في كل وقت فوت»[٤].

فحذارِ من حلول الموت على حين غرة وأنت لم تتزود بعد بزاد السفر. استمع إلى تحذير مولى المتقين الإمام علي عليه السلام في هذا الموضوع:

«احذروا عباد الله الموت وقربه، وأعدوا له عدته، فإنه يأتي بأمر عظيم وخطب جليل بخير لا يكون معه شرّ أبداً أو شرّ لا يكون معه

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٨٨.

٢ ـ سورة هود، الآية ٥٦.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٤ ـ غرر الحكم.

خير أدباً فمن أقرب إلى الجنة من عاملها؟ ومن أقرب إلى النار من عاملها؟![1]

فيا ايها الأعزة! ما هو آت سوف يأتي وما ينبغي حدوثه حادث. فما أهنأ من اختار بموته الفعلي أن يتراجع عن قرارات النفس ويستسلم لأمر الله المولىٰ. هذا هو معنى الفناء، إذاً:

«موتوا قبل أن تموتوا».

هذا ما أختم به كلامي وأنا أتضرع إلى الله المنان أن يهدينا معاً السبيل إلى مثل هذا المقام راجياً أن أنال دعاءكم، وأهدي هذه المجموعة من سلسلة كتب الاخلاق والعرفان الاسلامي إلى أرواح أساتذتي. وهم، حقاً، أصحاب فضل وفير في حقي، مع الامتنان اللا محدود لهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

١ ـ نهج البلاغة، الحكمة ٢٩.

الفهرس